الشعراء الصعاليك

في العصر العباسي الأول

الدكتور حسين عطوان

دار الجيل

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الشُّعَراءُ الصَّعَالِيكُ

في العَصْرِ العَبَّاسِيِّ الأَوَّلِ

الشُّعَراءُ الصَّعاليكُ

في العصر العبّاسيّ الأوّل

الدكتور حُسين عطوان

دار الجيل
بيروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى: ١٩٧٢

الطبعة الثانية: ١٩٨١

الطبعة الثالثة: ١٩٨٨

الطبعة الرابعة: ١٩٩٧

مقدمة

يَدْفَعُ كتابُ الشعراءِ الصَّعاليكِ في العصرِ العباسيِّ الأولِ الشُّبْهَةَ التي أحاطت بالشعر العربيِّ في هذا العصر وفي العصور الأدبية الأخرى، وهي أنه لم يكن مُرْتَبِطاً بالأمةِ، ولا مُصَوِّراً لأحوالها المضطربة البائسةِ، ولا مُهْتَمًّا بقضاياها الكبيرةِ المُؤَرِّقة، ولا مُعَبِّراً عن آمالِها في الحياةِ الحرَّةِ الكريمةِ، بل كان مُتَّصلاً بالخلفاءِ والوزراء وغيرهم من رجالِ الدولةِ وحواشيهم، مُتَمَلِّقاً لهم، مُمَجِّداً لِمَناقِبِهم وَمَحاسِنِهم، مُتَغاضِياً عن مَثالِبِهم وَمساوِئِهم، إذ يوضِّح أنَّ الشعراءَ الصعاليكَ في هذا العصر قد استوعبوا المشكلاتِ الاجتماعيةِ المُسْتَفْحلة، واستظهروا أسبابَها المختلفة، وَوَضعُوا لها الحلولَ الصَّحيحةَ، كما ثاروا على الظلم والعدوان بقوَّةٍ، وتمرَّدوا على النُّظم الفاسدةِ الجائرةِ، وَدَعَوْا إلى الإصلاحِ والأخْذِ بسياسةٍ قويمة رحيمةٍ، تُحقِّقُ العدلَ والمساواةَ بين الناسِ على تَبايُنِ طبقاتِهم، وتُعْطي كلاً منهم حقَّهُ على قَدْرِ فَضْلِهِ في نفسِهِ وعملِهِ، دونَ تَفْريقٍ بينَ أحدٍ منهم، حتى لا تعيشَ القلَّةُ القليلةُ في تَرَفٍ وَبَذَخٍ، وَتَشْقَى الكثرةُ الكاثرةُ في حياتِها، وتُحْرَمَ من خيرِ عَمَلِها، وَتُبْخَسَ أبسطَ حُقوقِها، وهي الحُصُولُ على ضَروراتِ المَعاشِ.

والكتابُ مقسومٌ بينَ خَمْسةِ فُصولٍ، درستُ في أولها الأسبابَ التي هيَّأت لِظُهورِ الصعاليكِ في العصر العباسيِّ الأول. وهي أسبابٌ متعدِّدةٌ، إذ منها ما يَرجع إلى الاختلال الاقتصاديِّ والطُّغيانِ في تطبيق النِّظام الماليِّ، سواءٌ في جَمْعِ الصَّدقات والخَراج، وإرهاقِ الناس بها، وتكليفِهم ما يُطيقونَ وما لا يُطيقونَ منها، أو في إنفاقِ بَعضِها في سُبُلٍ لا تُفيدُ الأمَّةَ، ولا تُراعي المصلحةَ العامَّة. ومنها ما يرجع إلى التَّناقضِ الاجتماعيِّ، فقد كان الشَّعْبُ مُوزعاً بين طَبَقَتَيْنِ مُتَميِّزَتَيْنِ: طبقةِ الأغنياءِ، وطبقة الفقراءِ، أمَّا أبناءُ الطبقةِ الأولى فكانوا يحيون في نعيم ورفاهيةٍ

إلى غير حد لأنهم كانوا يمثلون الهيئة الحاكمة المستبدة التي استأثرت لنفسها بطيبات الأرض، وأما أبناء الطبقة الثانية فكانوا يعيشون في بؤس وشقاء إلى غير حد، لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، بل مستعبدين لا يملكون من أمرهم شيئاً. ومنها ما يرجع إلى كثرة الفتن والاضطرابات التي ماج بها العصر العباسي الأول، والتي أرهقت الناس، وأعدت لانتشار الفقر بينهم، وأغرت المحتاجين منهم بالتلصص والنهب لإقامة أودهم.

وخصصت الفصل الثاني للصعاليك في المجتمع العباسي، ووازنت فيه بين الصعاليك الجاهليين والأمويين، وبين الصعاليك العباسيين. ووقفت عند أسباب تصعلكهم، وطبقاتهم، ومشكلاتهم وأهدافهم، ووسائلهم الى اكتساب أرزاقهم. وانتهيت الى أن حركة الصعلكة قد تطورت في المجتمع العباسي تطوراً كبيراً، بحكم تحضُّر الناس واستقرارهم وإقامتهم في المدن، وانحلال الرابطة القبلية التي كانت تجمع بينهم في الجاهلية وعصر بني أمية. وهو تطور كان من نتائجه أن كان الصعاليك العباسيون جميعاً من الفقراء المحارفين، في حين كان الصعاليك الجاهليون والأمويون طوائف فمنهم الفقراء ومنهم الخلعاء، ومنهم الأغربة السود الذين ورثوا السواد عن أمهاتهم الحبشيات، كما كان من نتائجه أن طوّر الصعاليك العباسيون وسائلهم التي اعتمدوا عليها في حياتهم، فقد مال بعضهم الى الشكوى أو الى الهجاء، واحترف غيرهم السَّطْوَ على الدور والأسواق والطرق احترافاً منظماً قائماً على التعلُّم والتدرُّب، وعلى اختراع الخدع التي عمُّوا بها على الناس، فلم يشعروا بهم وهم يسرقونهم، ولا فكروا قط في أنهم هم الذين سرقوهم. وكان الصعاليك الجاهليون والأمويون يصطنعون الغزو والإغارة على القبائل والقوافل والأسواق جهراً مستعينين بأفراسهم، ومستخدمين أسلحتهم، وناهبين الناس بالقوة والعنف. ومع هذا التطور الذي طرأ على حركة الصعلكة في المجتمع العباسي، فقد ظل بعض الصعاليك العباسيين ممن استحكمت الروح القبلية فيهم، وتمكنت الحمية الأعرابية منهم يغيرون ويغزون، ومن أشهرهم جعفر بن عُلْبة الحارثي، وبكر بن النطاح، وأبو النَّدى مولى بَلِيّ.

وأفردت الفصل الثالث للصعاليك الفقراء الهَجَّائين، وعرضت فيه لسوء أحوالهم، وما كانوا يعيشون فيه هم وأبناؤهم وأهلوهم من ضيق وإملاق، وعُرْي وهزال، وجوع وضياع، فإذا منازلهم خالية من المتاع والطعام وأجسامهم عارية، وأرجلهم حافية، وبطونهم جائعة، وألوانهم شاحبة. وعرضت فيه أيضاً لوسائلهم التي اتخذوها لكسب أرزاقهم، وإقامة أرماقهم، إذ منهم من جَرَّب المدح، ولكنه لم يَدِرَّ عليه من النوال إلا أقل القليل، لأن أكثر الممدوحين لم يحتفلوا به، بل أعرضوا عنه، وردوه رَدّاً سيئاً. ولعل ذلك هو الذي حمل معظمهم على اصطناع الهجاء الفاحش الذي شَهَّروا فيه بِمَهْجُوِّيهم، وهتكوا أعراضهم، واتهموهم بالفسق والزندقة تنفيساً عن حِقدهم عليهم، وَتَشْهيراً بهم حتى يجودوا لهم ببعض المال. واستجدى غيرهم واستعطف استجداء واستعطافاً لا يَمتّان بسبب إلى الكدية التي تحولت فيما بعد إلى ما يشبه الصناعة، ونزل أصحابها عن كرامتهم واتصفوا بالكذب والخداع. ومَثَّلْتُ لهم بأبي الشمقمق، فقد ترجمت له ترجمة وافية ألْمَمْتُ فيها بحياته وأسباب تصعلكه، وسوء حاله، وعُدْمه وبؤسه، كما ألممت بموضوعات شعره.

ووقفت في الفصل الرابع عند الصعاليك الفقراء اللصوص. وتحدثت فيه عن حركتهم، وخلصت الى أنها كانت حركةً قوية منظمة، إذ كان لها زعماؤها الذين قاموا على تثقيف رفاقهم وتمرينهم لكي يكونوا بصيرين بأوضاع مجتمعهم، عارفين حدود مهنتهم، كما تحدثت فيه عن حِيَلهم الطريفة، وخططهم المحكمة التي كانوا يرسمونها وينفذونها بدقة، والتي نَوّعوا فيها تنويعاً واسعاً لتتلاءم كل خطة وحيلة منها مع طبيعة المكان الذي قرروا سرقته، وليخفَى عمَلُهم على الناس. وتحدثت فيه كذلك عن مبادئهم التي التزموا بها، وأهدافهم التي سعوا إليها. فقد كانوا أوفياء كرماء، صادقين، لا يعتدون على الجيران ولا على الفقراء، ولا يكافئون غادراً بغدره، ولا يقتلون أحداً، ولا يتعرضون بِشَرٍّ لغنيٍّ كريم، وإنما كانوا يسطون على الأثرياء الأشحاء، والتجار الغدرة الذين كانوا يكذبون ويأكلون أموال اليتامى، ولا يُؤَدُّون الزكاة. وكانوا لا يرون أنهم يرتكبون بذلك خطأ، ولا يقترفون

جرماً، لأنهم قد استقر في وعيهم أنهم إنما كانوا ينتزعون منهم حقهم انتزاعاً، وهو حق معلوم فرضه القرآن عليهم، وجعله للفقراء والمحتاجين، وكان اللصوص من هؤلاء الفقراء والمحتاجين.

وقصرت الفصل الخامس للحديث عن ثلاث طوائف متميزة من الصعاليك العباسيين، جمع الفقر والإقلال والضياع بينها، ودفعها إلى التصعلك دفعاً. أولاها طائفة العَيّارين الذين كان أكثرهم من الأحباش، وقد ظهروا أول ما ظهروا في أثناء الخلاف بين الأمين والمأمون على الحكم، وحاربوا مع الأمين، وأثبتوا مقدرتهم على القتال والاستبسال، واغتنموا ما أصاب بغداد من الفوضى، فأخذوا يسرقون التجار ليقيموا بما يسرقون منهم أرماقهم، ويسدوا جوعهم، لأنهم كانوا عراة جائعين. وثانيتها طائفة الشطار الذين نشأوا ببغداد، وقويت شوكتهم في مطلع القرن الثالث، وكانوا يُغيرون وينهبون لاكتساب أقواتهم. ومن أشهرهم لهذا العهد ابن الطبيب الذي يصرح بأن الفقر هو الذي حمله على التصعلك لكي يجنب ابنة اخته اليتيمة التي تبناها مذلة السؤال، وسوء الحال. وثالثتها طائفة الطفيليين الذين لم يجدوا بُلَغ العيش التي يقيمون بها أنفسهم، وكان غيرهم من الأغنياء يتمتعون بالملذات من كل لون، ويقضون حياتهم في مسرات وملاه، ولا يواسونهم بشيء، مما جعلهم يدخلون ولائمهم وأعراسهم ويشاركونهم في مآكلهم ومطاعمهم، دون أن يروا في ذلك عاراً، لأنهم اضطروا اليه اضطراراً، حين انقطع الرزق عنهم، وعز القوت عليهم. ومن أذكر الطفيليين لهذا العصر عثمان بن دراج، وطُفيل بن زَلّال الذي نسب الطفيليون إليه.

وأرجو أن أكون وفقت بعض التوفيق في دراسة هؤلاء الشعراء الذين أعرض الباحثون عنهم، ولم يعنوا بهم إلا قليلاً، مع ما لهم من خطر، لأنهم يمثلون حياة الشعب، وما كان يرزح فيه من ظلم واستعباد، وما كان يعاني من جوع وضياع، وما كان يحس من مفارقات صارخة بينه وبين طبقة الأغنياء وما كان يجهد إلى بلوغه من المساواة والعدالة الاجتماعية.

عمان في ١٠/ ٥/ ١٩٧٢ **حسين عطوان**

الفصل الأول

أسباب ظهور الصعاليك في العصر العباسي

— ١ —

« الاختلال الاقتصادي »

لا تزال الحياة الاقتصادية في العصر العباسي الأول موضوعاً مهملاً مغفلاً، لم يدرس درساً وافياً ولم يبحث بحثاً علمياً، مما يجعل الحديث عنه والحكم عليه مسألة معقدة صعبة تحتاج الى التريّث والتثبُّت في استقصائها وعرضها[1].

ومن الخير للباحث أن لا يقيم عرضه للحياة الاقتصادية على مجموعة من الأخبار التي توضح ناحية من نواحيها، وتظهر الجانب المشرق منها، ثم يهمل الروايات التي تبين النواحي الأخرى، وتكشف عن العيوب فيها، لأن في ذلك طمساً للحقائق، وتغليباً لبعضها على بعض، وإخفاء للسيئات، وإظهاراً للحسنات.

ومن أجل ذلك ينبغي أن لا تُتَّخذَ الأدلة الناصعة، والبراهين الساطعة على عدل بعض الخلفاء والوزراء، ورعايتهم لشؤون الأمة، وسعيهم إلى الفتوحات والجهاد، ونهوضهم لحماية الثغور، وقضائهم على بعض العابثين، وسيلة إلى الحكم على سائرهم، والى الإشادة بهم جميعهم، والتنويه بالجليل من أعمالهم، والصحيح من سياساتهم، لأن ذلك لا يُشَكِّل كل أعمالهم، ولا

---

(١) أنظر « العصر العباسي الأول » للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ٢٦١.

يُكَوِّن كل أنواع سياساتهم، فقد عملوا على تثبيت الحكم لأنفسهم، وحاربوا كل خصومهم، وسحقوا كل من انتقدهم، ونالوا حظوظاً من النعيم والترف والبذخ تتفاوت بين القلة والكثرة، وبين الاعتدال والإسراف.

والراجح ان الحياة الاقتصادية في العصر العباسي الأول لم تكن سليمة كل السلامة، ولا مستقيمة كل الاستقامة، بل كانت مضطربة بعض الاضطراب، مُختَلَّة شيئاً من الاختلال، بحيث لم تُحَقِّق الخير للناس على اختلاف طبقاتهم، ولا وفرت لهم الحياة الكريمة على تباين منازلهم. وإنما حظي فيها نفر قليل من الناس هم الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والعمال، وكبار رجال الدولة، ومن كان يتصل بهم، ويخلص في خدمتهم. ولم يكن مصدر الاضطراب والاختلال يرجع الى قصور النظام المالي وفساده، وإنما كان يرجع إلى الأخطاء التي ارتكبت في تطبيقه وتنفيذه، وإلى توزيع الأموال في وجوه متعددة لا تتعلق بالمنفعة العامة، ولا تعود بالفائدة على الأمة، لأن ما كان يرد إلى بيت المال من أموال الصدقات والخراج كان مبالغ ضخمة تقدر بملايين الدنانير، كان متوسطها في كل عام ثلاثمائة وستين ألف ألف درهم[1]، كما كانت تزيد في بعض الأعوام عن خمسمائة ألف ألف درهم[2].

وللاختلال الاقتصادي في العصر العباسي الأول مظاهر كثيرة، منها : العنف في جباية الخراج، ومنها زيادة الخراج، ومنها خيانة العمال وارتشاؤهم، ومنها عزل الخلفاء لبعض وزرائهم واستصفائهم الأموال الطائلة منهم، ومنها إنفاق الأموال في سُبُلٍ لا تُفِيد الأمة كتجنيد الجيوش للقضاء على المتمردين الثائرين، والاغداق على القادة وجنودهم إغداقاً فياضاً لكي يظلوا أوفياء لهم، منفذين لأوامرهم، وكإجراء الأعطيات على بعض الأمصار، وخاصة الحجاز لا

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٧٩.
(٢) الوزراء الكتاب ص : ٢٨٨.

لأنه أصل الإسلام، ولا لأن أهله لهم الفضل في تقبل الإسلام والعمل على نشره فحسب بل لأن أهله كانوا أيضاً مصدر شغب على البيت العباسي.

أما العنف في جمع الخراج فليس بين أيدينا أخبار كثيرة عنه. غير أن ما لدينا من الروايات القليلة عنه تدل على ان الظلم والتنكيل والبغي كانت ظاهرة منتشرة منذ مطلع العصر العباسي، فقد قال عمرو بن عبيد للمنصور بالبصرة:

« إن من وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، وما يعمل من وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة رسوله »[1].

وقد لا يوضح هذا الخبر أن الظلم كان في جباية الخراج، لأنه لا يحدد أنواع المظالم، ولا على من كانت تنزل، غير أن الجهشياري يورد خبراً آخر يدل دلالة قوية على أن العمال كانوا يجورون ويظلمون الناس في جمع الخراج لعهد المنصور، وأن المهدي حين تَوَلّى الخلافة من بعده شاور في الأمر بعض خاصته، فحذروه من العواقب. فعدل بين الناس، ودفع الظلم عتهم، يقول الجهشياري: « كان أهل الخراج يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير والسنانير، وكان محمد بن مسلم خاصاً بالمهدي، فلما تقلد الخلافة، ووجد أهل الخراج يعذبون، شاور محمد بن مسلم فيهم. فقال له: يا أمير المؤمنين هذا موقف له ما بعده، وهم غرماء المسلمين، فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء، فأمر برفع العذاب عن أهل الخراج »[2].

وحَفِظَ الزبير بن بكار وغيره أطول خبر يدل على إلحاح المنصور في جمع الأموال من الرعية، ومنعها عنهم، وتَجَبُّر عماله في استخراجها منهم، يقول[3]: حدثني مبارك الطبري قال: سمعت رجلاً من أهل مكة يقال له أبو

---

(١) الأخبار الطوال ص: ٣٨٤، والأخبار الموفقيات ص: ١٤٢.

(٢) الوزراء والكتاب ص: ١٤٢.

(٣) الأخبار الموفقيات ص: ٣٩٢، وانظر الخبر في عيون الأخبار ٢: ٣٣٣، والعقد الفريد ٣: ١٥٩، والمحاسن والمساوىء ص: ٣٣٩، وشرح نهج البلاغة ١٨: ١٤٤.

الماهر يقول : قدم المنصور للحج، فكان يخرج من دار النَّدْوَة إلى الطواف في آخر الليل مُسْتَتِراً من الناس، فيطوف بالبيت، ويصلي، ويدعو، لا يُعْرَفُ مَوْضِعُهُ، فإذا أضاء الفجر عاد إلى دار الندوة وجاء المؤذنون فسلموا عليه، وأقيمت الصلاة، فيخرج فيصلي بالناس. فخرج ذات ليلة حين أسحر، فطاف بالبيت. فسمع رجلاً في المُلْتَزَم(1) يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. قال : فاقتصد المنصور في مَشْيِهِ حتى ملأ مسامِعَه من قوله، ثم خرج من الطواف فجلس ناحية من المجلس، وأرسل الى الرجل، فقال له : أجب أمير المؤمنين، فصلى ركعتين، واستلم الركن، وأقبل مع الرسول، فسلم عليه فقال له المنصور : ما هذا الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وبين أهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أَرْمَضَني وأقلقني !

قال : يا أمير المؤمنين، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجزت منك، واقتصرت على نفسي، ففيها شاغل عن سوى ذلك.

قال المنصور : فأنت آمنٌ على نفسك. فقال : يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق، فأظهر طمعه في الأرض والفساد لأنت !

قال : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض في يدي !

قال : يا أمير المؤمنين، وهل دخل أحداً من الطمع ما دَخَلَكَ ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم ! وجعلت بينك وبينهم حجاباً من جصٍّ وآجر، وأبواباً من حديد، بعضها على إثر بعض، وحَجَبَةً عليها في أيديهم السلاح، ثم سجنت

---

(1) الملتزم : ما بين باب الكعبة والحجر الأسود.

نفسك فيها، واحتجبت بها عنهم، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وحشرها إليك، وقوّيتَهم بالرجال والكراع، وأمرت بألّا يدخل عليك من الناس إلا فلاناً وفلاناً، لنفرٍ يسير، ونهيتهم إن يُوصِلوا إليك مظلوماً أو ملهوفاً أو جائعاً أو عارياً أو ضعيفاً فقيراً له في هذا المال الذي قبلك حق. فجبى عمالك الأموال وجمعوها، وحشروها إليك، فأودعتها الخزائن بمدينتك، ولم تُعطِها أهلها. فلما رآك، يا أمير المؤمنين، هؤلاء النفر الذين استخلفتهم لنفسك وخصصتهم بِبِرِّك، وآثرتهم على رعيتك تُجِمُّ[1] الأموال وتجمعها، وتستأثر بها، فلا تُقسمها على أهلها، وتمنعهم حقوقهم منها، قالوا: هذا قد خان الله، فما لنا لا نخونه! وقد سجن نفسه، وأمْكَنَتْنا منه الفرصة، واطلعنا منه على العورة !! فتوازروا[2] ما أحبوا، وأن لا تطلع من أمورهم إلا على ما أرادوا، وأن لا يخرج لك عامل يخالف أمورهم، ويطرح رأيهم، إلّا قَصَبُوه[3] عندك واغتابوه، حتى تسقط منزلته، ويتضح أمره، فأجمع رأيهم وأمرهم على ذلك، وانتشر لهم بذلك، يا أمير المؤمنين، عند الخاصة والعامة يضُرُّون وينفعون عندك من شاءوا، وأنك تقبل قولهم، وتعمل برأيهم، فأعظمهم مَنْ بِنْ وراء بابك، وخافوهم، فكان أول من صانعهم من الناس وداراهم عمالك، فأرسلوا إليهم بالهدايا، ليقْووا بها على ظلم رعيتك، فامتلأت الأرض من طمعك الحاجز بينك وبين الحق بغيا وفسادا، وصار يا أمير المؤمنين، هؤلاء النفر الذين سجنت نفسك لهم بطمعك شركاءك في سلطانك، يكسبون لك الآثام، ويُطوِّقونك الخطايا، ويحملونك الأوزار، وأنت غافل أو متغافل ».

والخبر طويل، وبقيته تمضي على هذا النحو من التنديد بسيرة المنصور وسياسته المالية وغير المالية، والنقد لموظفيه وولاته وأعوانه والاحتجاج على

---

(١) تجم : تُكثر.

(٢) توازروا : ائتمروا وتعاونوا.

(٣) قَصَبُوه : عابوه وشتموه.

طغيانهم وعدوانهم على الناس، والتشهير بضربهم للمتظلمين والمخالفين لأوامرهم !!

وقد ختمه صاحبه بقوله للمنصور ناصحاً له : « افتح الأبواب، وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفَيْءَ والصدقات مما حَلَّ وطاب، واقسمْهُ بالعدل والحق، وأنا الضامن على الذين هربوا منك أن يأتوك ويبايعوك على صلاح أمورهم وأمورك، وصلاح رعيتك » !

ولا تَظُنَّنَّ أن العذاب رُفِعَ عن الناس بعد ذلك ؟ ففي عهد الرشيد طعن الناس في الفضل بن يحيى البرمكي وهو على خراسان، وأكثروا من الشكوى منه، فعزله الرشيد وولى مكانه علي بن عيسى، فقتل وجوه أهل خراسان وملوكها، وجمع أموالاً جليلة، وحمل إلى الرشيد ألف بدرة معمولة من ألوان الحرير، وفيها عشرة آلاف ألف درهم[1]. وفي عهد الرشيد أيضاً أساء يحيى ابن سعيد والي الموصل له السيرة في أهلها، وظلمهم وطالبهم بخراج سنين مضت، فجلا أكثر أهل البلد[2]. وفي عهد المأمون طغى علي بن هشام والي أذربيجان طغياناً شديداً، ظلم معه الناس، وأخذ الأموال، وقتل الرجال، مما حمل المأمون على قتله[3]. وفي زمن الواثق عمل محمد بن عبد الملك الزيات تنُّوراً به مسامير كان يعذب فيه الناس والمصادرين[4].

وأما زيادة الخراج، فظاهرة أعم وأشهر، والأخبار عليها أكثر وأخطر، فقد كان أكثر العمال يزيدون الخراج ويطالبون الناس فوق ما عليهم، لكي يجمعوا الأموال الكثيرة منهم، إما ليقتطعوا قسماً منها لأنفسهم، وإما ليكسبوا بها رضاء الخلفاء عنهم. وهي ظاهرة نلحظها مع صدر العصر العباسي الأول، إذ كان أبو

---

(١) الوزراء والكتاب، ص : ٢٢٨، وانظر العصر العباسي الأول للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ٢٦٨.
(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ١٥٣.
(٣) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٢٦، وانظر النجوم الزاهرة ٢ : ٢٢٣.
(٤) المحاسن والمساوىء ص : ٥٣١، والفخري ص : ٢١٤، ومروج الذهب ٤ : ٥.

أيوب سليمان المورياني وزير المنصور يحب جمع المال ليتقرب به إليه إذا خافه، كما كان خائناً فنكبه وقتله وقتل أقاربه واستصْفى أموالهم[١]. وحين قلده المنصور الدواوين مع الوزارة غلب عليه غلبة شديدة، وصرف أهله جميعاً في الأعمال حتى قالت العامة إنه قد سحره، كما نال ولداه من الدنيا ونعيمها حظاً عظيماً[٢].

أما أبو عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي فكان الوزراء قبله يأخذون خراجاً مُقَرّراً ولا يقاسمون، فلما ولي الوزارة قرر المقاسمة، وجعل الخراج على النخل والشجر، واستمرت الحال من بعد على ذلك[٣]. وحين تولى مصر موسى بن مصعب للمهدي تشدد في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان مثل ما تُقُبِّلَ به، ثم عاد إلى الرشوة في الأحكام، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب، فقال أحد شعراء مصر ساخراً من ذلك[٤] :

لَوْ يَعْلَمُ المَهْدِيُّ ماذا الـذي يَفْعَلُـــهُ مُوسَى وأيُّـــوبُ
بأرْضِ مِصْرَ حِيـنَ حَلَّا بِهَــا لَمْ يَتَّهِمْ في النُّصْحِ يَعْقُــوبُ[٥]

مما جعل العرب من اليمنية والقيسية يثورون عليه ويقتلونه[٦]. ويقول ابن تغري بردى : إنه تشدد على الناس في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أوّلاً، ولقي الناس منه شدائد، وساءت سيرته، وارتشى في الأحكام، ثم رَتَّب دراهم على أهل الأسواق والدّواب. فكرهه الجند وتَشَغَّبُوا

---

(١) الوزراء والكتاب ص : ٩٧، وانظر الفخري ص : ١٥٩.
(٢) الوزراء والكتاب ص : ٩٧.
(٣) الفخري ص : ١٦٤.
(٤) النجوم الزاهرة ٢ : ٥٤.
(٥) يعقوب : هو يعقوب بن داود وزير المهدي.
(٦) الولاة والقضاة ص : ١٢٥ ـــ ١٢٦.

عليه ونابذوه، لأنه كان غاشماً ظالماً[1]. وفي عصر الرشيد تَوَلّى خراج مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة عمر بن غيلان فَضيّق على الناس وعلى أهل الخراج، فنفرت منه القلوب، وثار عليه الجند وقاتلوه[2]. وفي سنة سبع وسبعين ومائة عُيِّن إسحاق بن سليمان والياً على مصر، وكشف عن خراجها، فلم يرضَ بما كان يأخذه الولاة من قبله، فزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فسئمته الناس وكرهته، وخرج عليه جماعة من أهل الحوف من قيس وقضاعة فحاربهم[3]. وفي سنة إحدى وتسعين ومائة وَلِيَ مصر الحسين بن جميل، فتشدد في الخراج، فثار عليه أهل الحوف وامتنعوا عن أداء الخراج[4]. وفي أيام المأمون كان صالح بن شيرزاد على خراج مصر، فظلم الناس، وزاد في الخراج وعسف، فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا على قتاله[5]. ولم يزل أهل الحوف يثورون على عمالهم في العام بعد العام مطالبين حيناً بتخفيف الخراج عنهم، وممتنعين حيناً ثانياً عن أدائه، ومقاتلين حيناً ثالثاً أمراءهم حتى اضطربت أحوال مصر، واضطر المأمون إلى الذهاب إليها بنفسه سنة سبع عشرة ومائتين، وإصلاح أمورها وترضية أهلها، بعزل ولاتها وعمالهم، لأنهم حَمَّلوا الناس على ما لا يطيقون[6].

وزيادة الخراج على أهل مصر أشهر، وثورة العرب بها على عمالهم أكثر، حتى لا تكاد تخلو ولاية عامل من عمالها من ثورة أو ثورات. ومع أنه لا يصح أن نحمل سائر أحوال الأمصار على أحوالها، فإنه يصح أن نتخذها مثالاً على سياسة العمال الجائرة في الخراج، وما كانت تقوم عليه من الطغيان

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ : ٥٤، ٥٥، وخطط المقريزي ٢ : ٩٤.

(٢) النجوم الزاهرة ٢ : ٧٤.

(٣) النجوم الزاهرة ٢ : ٨٧.

(٤) النجوم الزاهرة ٢ : ١٣٥، وخطط المقريزي ٢ : ٩٧.

(٥) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٥، وخطط المقريزي ٢ : ٩٩.

(٦) الولاة والقضاة ص : ٢١٧.

والظلم وإكراه الناس على دفع ما يفرض عليهم من الأموال والتعنت في استيفائه منهم. على أن أهل البلاد الأخرى كانوا يتظلمون في الحين بعد الحين ويثورون على ولاتهم مطالبين إياهم بالعدل في سياستهم، والقصد في فرض الأموال الباهظة عليهم، كما كان بعضهم يُجْبَرُ على قتل بعض العمال إذا لجوا في بغيهم وجورهم، ومن ذلك ما يروى من أن بني تغلب ثاروا على روح بن صالح عامل الصدقات، وقتلوه سنة إحدى وسبعين ومائة[1]. ومنه أيضاً ما يروى من ان أهل قم استكثروا ما عليهم من الخراج وهو ألفا ألف درهم، فكتبوا الى المأمون يشكون ثقله عليهم، وطلبوا منه أن يخففه عنهم، على نحو ما صنع مع أهل الري، فلم يجبهم إلى ما سألوه، فامتنعوا عن أدائه فحاربهم وأرسل إليهم علي بن هشام فظفر بهم، وجبى منهم سبعة آلاف ألف درهم بعدما كانوا يتظلمون من ألفي ألف درهم[2].

ويوصف بعض الوزراء أو العمال بالخيانة سواء لاحتجازهم الأموال لأنفسهم، أو لارتشائهم، ومن ذلك ما يروى من أن عثمان بن عمارة كان على سجستان في أيام الرشيد، فطولب بخمسة آلاف ألف درهم وحبس، فقال يستشفع الرشيد معترفاً بخيانته وجرمه[3].

أَغِثْني أَمِيرَ المُؤْمِنِيـنَ بِنَظْـرَةٍ ... تُزُولُ بها عَنِّي المَخَافَةُ والأَزْلُ[4]
فَفَضْلَكَ أَرْجُو لا البَـرَاءَةَ إِنَّـهُ ... أَبَى اللهُ إلَّا أَنْ يكونَ لَكَ الفَضْلُ
وإلَّا أَكُنْ أَهْـلا لما أَنْتَ أَهْلُهُ ... فأَنْتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِيـنَ لَهُ أَهْـلُ

ومن ذلك ما يروى عن اسماعيل بن عُلَيَّة من انه ولي الصدقات بالبصرة، فكتب إلى عبدالله بن المبارك الفقيه الشاعر الزاهد يصف ما وقع فيه، ويقول

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ١١٣.
(٢) تاريخ الطبري ١١ : ١٠٩٣.
(٣) الورقة ص : ٢٥، ومعجم الشعراء ص : ٩٢.
(٤) الأزل : الحبس والشدة والضيق.

له : أحب أن تبعث إليّ إخواننا من القراء لنشغلهم، فكتب إليه عبدالله بن المبارك : القراء حزبان : قوم طلبوا هذا الأمر لله، فأولئك لا حاجة لهم في لقائك، وقوم طلبوا الدنيا فأولئك أضرُّ على الناس من الشُّرط، وكتب إليه شعراً يندد فيه به، ويُعَنِّفُهُ أشد التعنيف، منه قوله له[1].

يا جَاعِـــلَ الدِّيـــن له بَازِياً   يَصِيـدُ أمـوالَ المساكيـــنِ
احْتَـلْتَ للدُّنيـا ولذَّاتهـا   بحِيلَــةٍ تَذْهَبُ بالدِّيـــنِ

ويُظهِرُ عزل الخلفاء لبعض وزرائهم وعمالهم لسوء سيرتهم وخيانتهم ومصادرتهم لأموالهم مقدار ما كانوا يسرقون من الأموال ويحتجنونه لأنفسهم من بيت المال، وهي سنة سَنها أبو جعفر المنصور بعزل وزيره المورياني ومصادرته واستصفاء ماله وحبسه[2]. وبعزله أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة ومصادرته وحبسه لشكوى أهل الجزيرة عليه[3]. ومع كل ما ينسب إلى أبي جعفر المنصور من الحكمة والعدل، فإن اليعقوبي يتهمه بأنه أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فَضْلاً. وكان مبلغ ما أخذ منهم ثمانمائة ألف ألف درهم[4]. والصحيح أن تلك الأموال كانت مجموع ما صادره المنصور من الجُناة والمخالفين، وما أمر ابنه المهدي أن يرده إلى أصحابه بعد التوثق والتحقق من انه لهم طلباً لاسترضائهم وكسباً لولائهم[5].

ومضى الخلفاء العباسيون يفصلون وزراءهم وعمالهم لفسادهم واستبدادهم بأموال الأمة، فقد عزل المهدي وزيره ابن يسار لأنه وقف منه على خيانة

---

(١) كتاب الورقة ص : ١٦.
(٢) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٤.
(٣) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٤.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٣ : ١٢٥.
(٥) الفخري ص : ١١٥.

سياسية[1]. وعزل أيضاً إبراهيم بن صالح العباسي عن ولاية مصر، وأخذ منه ومن عماله ثلاثمائة ألف دينار[2] ومن المؤرخين من يذهب إلى ان الرشيد إنما نكب البرامكة لأنهم احتازوا الأموال دونه، حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر عليه[3]. وفي سنة عشرين ومائتين غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وصادره، وأخذ منه أموالاً اختلف في مقدارها، إذ يقول البيهقي إنها بلغت ألف ألف وستمائة ألف دينار[4]، بينما يقول ابن تغري بردى إنها كانت عشرة آلاف ألف دينار[5]. وفي سنة تسع وعشرين ومائتين حبس الواثق الكتاب، وألزمهم أموالاً عظيمة، فأخذ من أحمد بن اسرائيل ثمانين ألف دينار، ومن سليمان بن وهب اربعمائة ألف دينار، ومن الحسن بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مائة ألف دينار، ومن أحمد بن الخصيب وكتابه ألف ألف دينار، ومن نجاح ستين ألف دينار، ومن أبي الوزير مائة ألف وأربعين ألف دينار[6].

وهذه مبالغ ضخمة كان الوزراء والعمال والكتاب ينتهبونها من بيت المال، ويخرمون الشعب منها، ويتمتعون بها. ومثلها أو أكثر منها تلك الأموال التي كان الخلفاء يخصصونها للجيش الذي استكثروا منه وأفاضوا في الإنفاق عليه، لتثبيت أركان دولتهم، وسحق الثائرين عليهم، إذ يقول هِل : إن الجيش كان عضد العباسيين الأساسي، والعمود الفقري لقوتهم، وإنه نما نمواً عظيماً

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٣ : ١٣٨.
(٢) النجوم الزاهرة ٢ : ٤٩، ٥٤.
(٣) مروج الذهب ٣ : ٣٦٨، والفخري ص : ١٩١.
(٤) المحاسن والمساوىء ص : ٥٣٠.
(٥) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٣٣.
(٦) الكامل في التاريخ ٧ : ١٠.

فبلغ عدده زمن الخلفاء العباسيين الأوائل مئات الألوف من الجنود النظاميين المدونين في الديوان، والذين كانت لهم أرزاق وأعطيات[1].

وإذا استعرضنا أخبار بعض القادة والحملات التي قادوها للقضاء على الثائرين والمبالغ التي انفقت على تجهيز آلاف الجنود، والأموال التي أجريت عليهم، والصلات التي بذلت لقادتهم تبين لنا مقدار ما كان يستأثر به الجيش من المال. فقد أنفق المنصور على خمسين ألفاً من جنوده بقيادة يزيد بن حاتم سيَّرهم لمقاتلة الخوارج بإفريقية خمسين ألف ألف درهم وزيادة[2]، كما كان المنصور دائم الإغداق على جنوده وقواده[3]. وكذلك فعل الرشيد حين خرج عليه يحيى بن عبدالله بالديلم، واشتدت شوكته، وقوي أمره، ونزع إليه الناس من الأمصار، إذ ندب لمحاربته الفضل بن يحيى البرمكي، وأعطاه الأموال، ففرقها بين قواده، وأخذ الناس يقصدونهم، وهم ينثرونها عليهم طُعْمَةً لهم[4]. وحين اختلف الأمين والمأمون على الخلافة وتنازعا أعدَّ الأمين جيشاً من ستين ألف رجل، ووضع لهم العطاء، وأمر علي بن عيسى بن ماهان عليهم، وأَمَرَهُ أن يكرم قواد خراسان ويضع عن أهل خراسان نصف الخراج[5]. وكان كلما ضاق الأمر عليه وهو محاصر ببغداد يوزع الأموال على قادته، ويصلهم بالهبات الطائلة[6]. ويقال إن المعتصم وصل الأفشين حين قضى على بابك الخرمي بعشرين ألف ألف درهم، وعشرة آلاف درهم يفرقها في عسكره[7].

---

(١) الحضارة العربية ص : ٨٤.
(٢) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٢.
(٣) الأخبار الطوال ص : ٣٨٣.
(٤) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٣، والنجوم الزاهرة ٢ : ٨١.
(٥) الأخبار الطوال ص : ٣٩٦.
(٦) مروج الذهب ٢ : ٤٠٠، ٤٠٣، والكامل في التاريخ ٦ : ٢٦٨، ٢٧١.
(٧) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٧٨.

ولم يغدق الخلفاء العباسيون الأموال على الجنود والقواد الموالين لهم فحسب، بل أغدقوا أيضاً على خصومهم اتقاء لخطرهم، وتهدئة لهم، فعندما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني ثار بعض جنوده، وسخطوا عليه، فوجه إليهم الأموال، وقرّر لهم العطاء، وأسنى لهم الصلات، كما أجزل الهبات لقوادهم وأشرافهم(1). وحين خص الأمين قواده المحدثين بالأموال انتهز عبدالله بن طاهر ذلك، وكتب إلى قواعد الأمين القدماء يرغبهم في العطاء، ويبسط لهم آمالهم(2). وكان الرشيد قبل ذلك قد أرضى الجنود الذين شغبوا عليه بالأموال العظيمة، لأنهم لم يوافقوه على المبايعة للأمين بالخلافة من بعده وهو ما يزال صغيراً(3).

وعلى هذا النحو كانوا يغمرون الأقاليم التي ينزل بها خصومهم السياسيون بالأموال، وكأنما كانوا يريدون أن يشغلوا الناس عن الانضمام إلى أعدائهم أو التفكير في مناصرتهم. وقد ساقوا إلى إقليم الحجاز من الأموال ما لم يَسُوقُوا إلى غيره من الأقاليم، لأنه كان موطن العلويين الأصلي، ومصدر شغب طالما أزعجهم وأقلقهم. وأول من التفت من الخلفاء العباسيين إلى ذلك أبو جعفر المنصور، فقد زار مدينة الرسول سنة أربعين ومائة، فوضع لأهلها العطاء، وأسنى لهم الرزق، وفرق فيهم الجوائز(4). ثم أخذ الرشيد يختلف الى مكة والمدينة في السنة بعد السنة، ويوزع بين أهلهما الأموال، ففي سنة سبعين ومائة حج وانصرف الى المدينة، فأعطى أهل الحرمين عطاء كثيراً، وقسم فيهم مالاً جليلاً(5)، وفي سنة أربع وسبعين ومائة حج فبدأ بالمدينة فقسم في

---

(1) الأخبار الطوال ص: ٣٨٢، ٣٨٣.

(2) مروج الذهب ٣ : ٤٠٠.

(3) النجوم الزاهرة ٢ : ٨١.

(4) الأخبار الطوال ص: ٣٨٣.

(5) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٠٥، والأخبار الطوال ص: ٣٨٧، والنجوم الزاهرة ٢ : ٦٥.

أهلها مالاً عظيماً[١]، وفي سنة ست وثمانين ومائة، حج واخرج معه ابنيه الأمين والمأمون، فبدأ بالمدينة فأعطى أهلها ثلاثة أعطية، ثم سار الى مكة فأعطى أهلها عطاء فبلغ ذلك ألف ألف وخمسين ألف دينار[٢]. ويقال إن زبيدة زوجه فرقت في حجة واحدة ألفي ألف دينار[٣]. ولم يزل الخلفاء العباسيون يعتمدون على هذه الوسيلة، ويستمسكون بها إرضاء لأهل الحجاز، وخوفاً منهم، إذ يروى أن الواثق فرق على أهل الحرمين أموالاً لا تحصى[٤].

هذه السياسة الجائرة من تكليف الناس من الأموال ما لا يطيقون، والتضييق عليهم في جبايتها منهم، وجمعها في بيوت المال ومنعها عنهم، وانتهاب الخلفاء أكثرها لأنفسهم، واغتصاب الوزراء والعمال قسماً كبيراً منها لهم، وتفريق بعضها علي طرق لا تفيد الأمة كان لها نتيجتان واضحتان : أما النتيجة الأولى فهي محاولة الناس في الأمصار المتعددة ردّ الظلم عنهم، تارة برفع رقاع التظلم والشكوى، وتارة ثانية بالامتناع عن دفع الخراج، وتارة ثالثة بالثورة على العمال ومحاربتهم والفتك بهم. ويطول بنا القول إذا أردنا أن نلم بكل الثورات التي أشعلها أهل الأمصار على عمالهم. وقدمنا أن أهل الحوف من القيسية واليمنية بمصر كثيراً ما امتنعوا عن دفع الخراج، وطالما ثاروا على ولاتهم وقاتلوهم، وفضلاً عن ذلك فقد رفضوا دفع الخراج في سنة اثنتين وثمانين ومائة[٥]، وسنة ثلاث وثمانين ومائة تظلما[٦]، كما رفضوا الوفاء به

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٦١٠.

(٢) تاريخ الطبري ١١ : ٦٥١، والوزراء والكتاب ص : ٢٢١، والفخري ص : ١٨٢، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٩.

(٣) النجوم الزاهرة ٢ : ٢١٤.

(٤) الكامل في التاريخ ٧ : ٣٠.

(٥) الولاة والقضاة ص : ١٤٠.

(٦) النجوم الزاهرة ٢ : ١١٤، وخطط المقريزي ٢ : ٩٧.

سنة أربع عشرة ومائتين[1]. وبالمثل كان أهل البحرين واليمامة واليمن ينتفضون على عمالهم ويفتكون بهم[2]. ومن الباحثين من يرى أن ثورات أهل خراسان في جملتها تعود الى سبب واحد هو فساد النظام المالي الذي كان يطبق عليهم، وظلم العمال لهم[3]. بل إن أهل بعض الأمصار لم يكونوا يكتفون بالامتناع عن أداء الخراج فحسب، بل كانوا أيضاً يغيرون على خراج بعض البلاد الذي يمر بديارهم إلى بغداد، وينتهبونه ويستولون عليه[4].

وأما النتيجة الثانية فهي انقطاع الصلة بين بيوت المال وبين الرعية، وخاصة من فرض لهم القرآن الكريم في الزكاة والخراج حقاً معلوماً يجري عليهم ليقيموا به حياتهم، ويحافظوا به على كرامتهم. وقد يكون السبب في ذلك أن دواوين العطاء قد ضاعت، وقد يكون من أسبابه أيضاً أن الخلفاء والعمال لم يكونوا يفرضون للمحتاجين والفقراء مبالغ مُقَرَّرةً ثابتةً يصلونهم بها في كل عام، يشهد على ذلك سكوت أكثر المصادر القديمة عن الحديث عن رعاية الخلفاء والوزراء والولاة للبائسين والمعوزين، إلا أخباراً قليلة تؤثر لبعضهم، كالذي يروى من أن المنصور بعث إلى بعض عماله مالاً وأمره أن يُفَرِّقَهُ في القواعد والأيتام والعميان[5]، أو ما يقال من ان المهدي أجرى الأرزاق على المُجَذَّمين[6]، أو ما يقال من أن الواثق كَفَى فقراء مكة والمدينة حتى إنه لم يوجد بهما في أيامه سائل[7]. وهي في مجموعها أخبار نادرة لا تنبيء بأن الخلفاء جميعاً كانوا يكفلون أسباب الحياة للطبقات الفقيرة المعدمة، ولا أنهم كانوا يعملون بهذه السياسة على توالي عهودهم، وتتابع أيامهم. وكأنما كان

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٣ : ١١٢ — ١٢٣.

(٣) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص : ٥٥.

(٤) الولاة والقضاة ص : ١٤٦، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٤١، وخطط المقريزي ٢ : ٩٨.

(٥) المحاسن والمساوىء ص : ٥٨٧.

(٦) الكامل في التاريخ ٦ : ٥٧.

(٧) الكامل في التاريخ ٧ : ٣٠.

ذلك شذوذاً على القانون العام وهو ظلم الناس حقوقهم، وقطع الأرزاق عنهم، مع أنه كان من واجب الدولة أن تُعْنى بهم وتوفر الحياة الكريمة لهم.

وكان من آثار انقطاع الصلة بين بيوت المال وبين المعدمين والمحتاجين انتشار الفقر، مع العجز عن التماس وسائل العيش بالطرق المشروعة، مما حمل جماعات من البائسين الذين كانوا يعانون الجوع والحرمان على التمرد على أوضاعهم السيئة، وعلى السعي إلى كسب أقواتهم إما بالإغارة على المدن وسرقة الأسواق والتجار، وإما بالاستيلاء على بعض المناطق الى حين، وانتهاب الأموال منها، وإما بالتعرض للأغنياء والموسرين ومطالبتهم بالأموال التي يقيمون بها أرماقهم مع تهديدهم إذا بخلوا عليهم بالقليل من المال بهجائهم والتشهير بهم، واما بالتطفيل والدخول الى المآدب والأعراس دون دعوة أو إذن.

— ٢ —
التناقض الاجتماعي

اعتاد الباحثون وهم يعرضون للحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول أن يقفوا عند مظاهر التطور التي أصابتها، وما شاع معها من الآفات كإدمان الخمر، والتهالك على الملذات والملاهي. وهي مظاهر وَفوها حقها ووفروا لها حظها من البحث بحيث يصعب على الدارس أن يضيف إليها شيئاً جديداً، أو خبراً غاب عنهم.

وقد أداهم تركيزهم على هذا الجانب من الحياة الاجتماعية الى إهمال حياة الشعب، وما كان يعيش فيه من الفقر والبؤس والحرمان. وكأنهم انساقوا وراء المؤرخين القدماء الذين لم يؤرخوا للأمة على اختلاف طبقاتها تأريخاً شاملاً، وإنما أرخوا للخلفاء والوزراء والقادة والعمال.

والراجح أن المجتمع العباسي كانت تتوزعه طبقتان : طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء، دون أن تتوسط بينهما طبقة ثالثة تكون أحوالها متقلبة بين الشدة والرخاء أو بين البؤس والنعيم. أما التجار الذين كان مال بعضهم يصل إلى مائة ألف دينار، أو أكثر من ذلك، فلم يكونوا سعداء ولا كانت أوضاعهم حسنة في كل الأحوال، إذ طالما كان اللصوص يسرقونهم، كما كانت أموالهم عرضة للنهب وخاصة عندما تكثر الفتن وتنتشر الاضطرابات في بغداد أو في غيرها من المدن الكبرى[1]، بل ربما كانت الجوائز التي نالها شاعر من الشعراء النابهين الذين حظوا بمكانة رفيعة عند الخلفاء أكثر من مال أغنى تاجر.

ويمثل الطبقة الثرية المترفة في المجتمع العباسي الخلفاء والوزراء والقادة والعمال، أولئك الذين كانوا يعيشون في الدعة والسعة، ويتعمون بالملذات من كل نوع، وبالملاهي من كل لون. أما الفلاحون والعمال والأعراب الذين ظلوا يعيشون في البوادي فهم الذين يمثلون الطبقة الفقيرة البائسة التي كانت تحيا في ضيق وشدة وعذم، وكأنما كتب عليها أن تكدح وتكد لتجمع الأموال وتوفرها للخلفاء وحواشيهم لينعموا بها، أما هي فكان عليها أن تشقى بعد ذلك شقاءً متصلاً.

ويعجب الإنسان أشد العجب كيف ارتضى الخلفاء العباسيون ومن كان يقوم على خدمتهم من الوزراء والعمال هذه السياسة الجائرة من ظلم الناس وبخسهم حقوقهم، والاستئثار من دونهم بطيبات الحياة، مع كثرة ما كان يرد إلى بيت المال من الأموال، مما كان يهيىء للناس جميعاً حظاً من الحياة الكريمة، كل على مقدار فضله وعمله.

ومع كل ما قدمنا في خلال حديثنا عن الاختلال الاقتصادي من السبل التي كانت تستنفد المبالغ الضخمة من بيت المال، فإنه كان يبقى فيه بقية تزيد

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٤٠٨.

على ثلاثمائة ألف ألف درهم في كل عام احتجزها الخلفاء والوزراء لأنفسهم، وأنفقوها على ملاهيهم وحواشيهم[1]. وكان نصيب أبناء البيت العباسي منها موفوراً، إذ يقال إن المنصور فرض لكل واحد من أعمامه ألف ألف درهم في كل سنة، ولم يكن أبناء البيت العباسي قلة قليلة، فقد أحصاهم المأمون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً[2]. ومضى الخلفاء بعد المنصور يخصون أهلهم بالأموال الطائلة، حتى لقد فرق الرشيد سنة سبعين ومائة في أعمامه وأهله أموالاً لم يفرقها أحد من الخلفاء قبله[3]. ويقال إن دخل الخيزران أم الهادي والرشيد وزوج المهدي كان في السنة ستة آلاف وستين ألف ألف درهم[4]. أما محمد ابن سليمان العباسي والي البصرة فكان دخله في اليوم مائة ألف درهم[5]، وكانت تركته من المال والمتاع عظيمة، حتى لقد كان ما أخذه الرشيد منها ستين ألف ألف درهم[6]. وهي مبالغ وإن تشككنا فيها فإنها تحمل شيئاً من الحقيقة.

ولا يدل ذلك على ما كان يعيش فيه الخلفاء وأبناء البيت العباسي من الغنى الواسع والثروة العريضة إلا من بعض الوجوه، فقد كانوا يحيون حياة خيالية حتى أنفقوا كل ما كان يرد إلى بيت المال من الأموال، إذ يقال إن المنصور خلف في بيت المال ستمائة ألف ألف درهم، وأربعة عشر ألف ألف دينار فأنفقها المهدي جميعها[7] سوى ما جباه من الأموال في عهده. أما الرشيد

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٧٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٣١٩.

(٣) النجوم الزاهرة ٢ : ٦٥.

(٤) المصدر السابق ٢ : ٧٢.

(٥) الوزراء والكتاب ص : ٢٥٠.

(٦) النجوم الزاهرة ٢ : ٧٥.

(٧) الوزراء والكتاب ص : ١٥٩، ومروج الذهب ٣ : ٣١٢.

فترك عند وفاته تسعمائة ألف ألف درهم[1]. فبذّرها الأمين على ملذاته ومطربيه وأتباعه[2]. ويقال إن نفقة المأمون في اليوم الواحد كانت ستة آلاف دينار[3]. وكانوا يبذرون هذه الأموال حيناً في بناء القصور واقتناء أفخر المتاع. وحيناً في إجزال الصلات على الشعراء والمغنين. أما القصور والدور فقد شغف بها الخلفاء العباسيون جميعاً، وفتح لهم المنصور الباب الى ذلك ببنائه مدينة بغداد وإنفاقه عليها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً[4]. وأخذ الخلفاء بعده يفتنون في بناء قصورهم على غير مثال سابق، إذ شيد الأمين قصراً لم يرَ العرب والعجم مثله[5]، وابتنى المعتصم ثمانية قصور[6].

وشغل معظم الخلفاء العباسيين بالغناء منفقين عليه أموالاً لا تحصى كثرة، ولا تخفى شهرة، إذ كان أبو العباس السفاح يطرب للغناء والندماء، ولا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة[7]. أما المهدي فاستهتر باللهو واللعب وسماع الأغاني[8]، ويقال إن الهادي وصل إسحاق الموصلي على غناء أطربه بخمسين ألف دينار[9]. وكان للرشيد جماعة من المغنين منهم إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي ومخارق، وطبقة أخرى دونهم منهم زلزل، وعمرو الغزال، وعلوية، وزامر اسمه

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ٢١٤.

(٢) تاريخ الطبري ١١ : ٩٥٠، ٩٥١، والكامل في التاريخ ٦ : ٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) الفخري ص : ٢٠٧.

(٤) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٧٥.

(٥) طبقات ابن المعتز ص : ٢٠٩.

(٦) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٥١.

(٧) مروج الذهب ٣ : ٢٦٥.

(٨) الفخري ص : ١٦٧.

(٩) الوزراء والكتاب ص : ١٧٦.

برصوما[1]، وقد زادت صلاته لإبراهيم الموصلي عن مائتي ألف دينار[2]. وأما الأمين فأسرف في اللهو إسرافاً شديداً، وتكلف له أشد التكلف[3] حتى ليروى أنه أعطى إسحاق الموصلي ليلة ألف ألف درهم[4]. وأما المعتصم فكان حفياً بزامر اسمه زنام[5]. وكان الواثق يجيد الغناء وله فيه أصوات مشهورة[6].

وبجانب ذلك نثروا على الشعراء الذين كانوا يمدحونهم وينتصرون لهم مؤكدين حقهم في الخلافة أموالاً يصعب حصرها. فقد أعطى المهدي مروان ابن أبي حفصة مائة ألف درهم على مِدْحَةٍ[7]، وكان رسم الخلفاء العباسيين له ألف درهم لكل بيت[8]، بل لقد وصله الهادي على مِدْحَةٍ بمائة وثلاثين ألف درهم[9]، ويقال إنه نثر على سلم الخاسر مرة ثلاثمائة ألف درهم[10]. ويقال إن مجموع ما ساقه الرشيد من الجوائز الى سلم الخاسر بلغ عشرين ألف دينار[11]، ويقول ابن الطقطقي: إنه لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب

---

(١) العقد الفريد ٦ : ٣١.
(٢) الأغاني ٥ : ١٩٢.
(٣) الأخبار الطوال ص : ٣٨٩، والفخري ص : ١٩٣، والكامل في التاريخ ٦ : ٢٤٠ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٦٠.
(٤) الأغاني ٥ : ٣٦٨.
(٥) الفخري ص : ٢١٢.
(٦) الأغاني ١٠ : ١٦٢.
(٧) الأغاني ٩ : ٤٢.
(٨) الأغاني ٩ : ٤٢.
(٩) الوزراء والكتاب ص : ١٧٣.
(١٠) الوزراء والكتاب ص : ١٧٣.
(١١) الأغاني ٢١ : ٧٧.

الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة[1]. ويروى أن الأمين أعطى عبدالله بن أيوب التيمي يوماً مائتي ألف درهم[2].

وجارى الوزراء خلفاءهم في البذل والعطاء، واشتهر منهم آل برمك. أما جدُّهم خالد البرمكي فاستوزره المنصور، وكان بحراً فياضاً في الكرم حتى كثر الوافدون على بابه، وامتدحه الشعراء، وانتجعه الناس، وهو لا يبخل عليهم، بل يغدق الصلات لهم ويغمرهم بها غمراً حتى قيل فيه: إنه لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتناها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمّه إن كانت أمة، أو أدّى مهرها إن كانت حُرَّة، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها[3]. وحين استوزر الرشيد يحيى بن خالد فوّض إليه الحكم، وقلده أمر الرعية، وقال له: استعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمورَ على ما ترى[4]. وكان على شاكلة أبيه في الجود، كما كان ولداه الفضل وجعفر مثله في كثرة الإنفاق والهبات، حتى ليصف ابن الطقطقي أيام آل برمك بقوله: «اعلم أن هذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافعة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة ظاهرة»[5] وحسبنا دليلاً على ما كانوا يسوقون إلى المغنين من أموال ما أعطوه لإسحاق الموصلي في يوم واحد، وهو أربعمائة ألف درهم ليبتني بها داراً يزخرفها ويفرشها[6]. وكانوا

---

(١) الفخري ص: ١٧٨.

(٢) النجوم الزاهرة ٢: ١٨٩.

(٣) الوزراء والكتاب ص: ١٥٠.

(٤) تاريخ الطبري ١٠: ٦٠١.

(٥) الفخري ص: ١٧٩.

(٦) الأغاني ٥: ٣٠٨.

يصلون الشعراء بمئات الآلاف من الدراهم على نحو ما كان يفعل الخلفاء، إذ يقال إن الفضل بن يحيى أعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مِدْحَة[1]. ومر بنا أن من المؤرخين من يذهب إلى أن الرشيد إنما فتك بهم ونكبهم لاستبدادهم بالملك، واحتجانهم الأموال[2]. ثم وزر بنو سهل للمأمون، وغلب عليه منهم الفضل بن سهل فقتله[3]، ثم استوزر من بعده الحسن بن سهل، وقصة زواج المأمون ببنته بوران مذكورة، وما أنفقه عليها من الأموال مشهور[4]. ويقال إن عمرو بن مسعدة وزير المأمون خلف ثمانين ألف ألف دينار، فقال المأمون : هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا[5].

ولا يتأخر العمال والقادة في هذا الميدان عن الخلفاء والوزراء، فكرم معن ابن زائدة الشيباني معروف، وصلاته لمروان بن أبي حفصة مذكورة، حتى إن المنصور لامه عليها. ويقال إن يزيد بن مزيد الشيباني وهب مروان بن أبي حفصة مكافأة له على مِدْحةٍ ثلاثمائة ألف درهم[6]. أما أبو دلف العجلي فأعطى علي بن جبلة مائة ألف درهم[7]، وأما حميد الطوسي فساق إليه على مدحتين أربعمائة ألف درهم[8]. ويقال إن عبدالله بن طاهر خلف في بيت ماله أربعين ألف ألف درهم سوى ما أنفقه على الجوائز والهبات[9].

---

(١) الوزراء والكتاب ص : ١٩٠.

(٢) الفخري ص : ١٩١.

(٣) مروج الذهب ٣ : ٤١٧.

(٤) مروج الذهب ٣ : ٤٤٣، والفخري ص : ٢٤٠.

(٥) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٢٧.

(٦) العقد الفريد ١ : ٢٥٣.

(٧) الأغاني ١٨ : ١٠٤.

(٨) الأغاني ١٨ : ١٠٨.

(٩) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠١.

وكان من آثار تكدس هذه الأموال الضخمة في خزائن الخلفاء والوزراء والعمال والولاة، وغمرهم للمغنين والشعراء بها أن عاشت هذه الطبقة الغنية في النعيم الخالص والسرور الدائم، من دور مزخرفة، وفرش وثيرة، وثياب أنيقة معطرة، ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة، والتَّفنُّن فيها تَفَنُّناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة[1]، مما أفاض الدارسون في تبيان مظاهره في حياة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة والشعراء، ومما ألحوا عليه إلحاحاً شديداً، فإذا هم يستقصونه استقصاء، ويفصلونه تفصيلاً بما لا نقص فيه ولا مزيد عليه[2].

ومن العجيب حقاً أن يهمل المؤرخون القدماء العناية بأحوال سائر الأمة، وما كانت تعيش فيه من أوضاع سيئة، وكفاف وعَوَز وحاجة، مع أنها تؤلف الغالبية العظمى من الأمة. ومن العجيب أيضاً أن لا يعنى الباحثون المحدثون بهذا الجانب وهم يصورون الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، وما أدى إليه الغنى العريض، والثروة الضخمة وانصبابها في حجور قلة قليلة من الناس من الترف والبذخ والمجون والتحلل والاسترسال في التبذل - إلاَّ إشارات موجزة، وملاحظات سريعة لا تغني شيئاً في هذا المقام، ومع معرفتهم معرفة وثيقة دقيقة أن أموال الدولة لم تكن موزعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت الفروق بين الطبقات طفيفة، وإنما كانت هنالك هوات سحيقة، وفجوات واسعة بين الطبقات[3].

ولكن يبدو أنَّ ما رَسَخَ في النفوس من المهابة والإجلال للخلفاء، وما انتشر بين العامة من التوقير والتقديس لهم، هما اللّذان حملا الباحثين على الاحجام عن تبيان مفاسد الخلفاء، وأخطائهم، وما كانوا يسومون الناس في عهودهم من العسف والطغيان والاستعباد.

---

(١) العصر العباسي الأول ص : ٤٨.

(٢) ضحى الإسلام ١ : ١٠١ ـــ ١٢٦، والعصر العباسي الأول ص : ٤٤ ـــ ٦٥.

(٣) ضحى الإسلام ١ : ١٢٧.

ويبدو أيضاً أن التأريخ للحياة الاجتماعية من خلال دواوين الشعراء الرسميين النابهين، والاهتمام بسيرتهم الشخصية، وموضوعات أشعارهم، وخصائصها الفنية هي التي جعلتهم يُقَصِّرون في الحديث عن حياة الشعب، وما كان يقاسي فيها من الفقر والحرمان والضياع، لأن الشعراء الرسميين المشهورين لم يكونوا في أي عصر من العصور الأدبية يصدرون في أشعارهم عن المجتمع، وحياة الأمة، وإنما كانوا يصدرون فيها عن أهوائهم ونزعاتهم وآمالهم وسعيهم للحظوة عند الممدوحين، والفوز منهم بأكبر ما يمكن من الجوائز. وفتّش دواوين الشعراء العباسيين الرسميين المذكورين فإنك غير واجدٍ فيها شيئاً يدل على ارتباطهم بالشعب، وتعبيرهم عن مشاكله وآماله إلا في القليل النادر.

ومن أخطر النتائج التي أدى اليها إهمال المؤرخين التأريخ للأمة لا للخلفاء والوزراء، وعناية الرواة القدماء والأدباء بالشعراء الذين اتصلوا بالخلفاء ومَدَحُوهم ومجّدوا أعمالهم ووزراءهم وقادتهم، أو بالشعراء الذين كانوا يروون أشعارهم للاحتجاج بها على المسائل اللغوية والنحوية ــ أن ضاعت أشعارُ الشعراء الذين لم يفدوا على الخلفاء ولا أشادوا بهم، ولا ارتبطوا بالوزراء ولا أثنوا عليهم ضياعاً يصعب معه أن نعثر إلا على أقلها وما ندر منها، مما يوضح لنا في أي شقاء وبلاء كان الشعب يعيش، وفي أي مذلة ومهانة كان يحيا.

ومع ذلك فمما لا ريب فيه أنه كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية، فالجمهور كان يعيش في الضنك والضيق لا الرقيق الذي كان يعمل في القصور والضياع فحسب، بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار، وكأنما كانوا أرقاء في هذا النظام الذي كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة[1].

---

(١) العصر العباسي الأول ص : ٥١.

ومن أدلّ الأشعار التي وصلت إلينا على البرم والسخط والتمرد الذي كان يجيش في صدور الناس على أوضاعهم السيئة، وعلى تضرعهم إلى الله أن يلطف بهم، ويوسع عليهم هذه الأبيات التي رواها الأصمعي لشاعر مغمور لم يذكر اسمه رآه متعلقاً بأستار الكعبة وهو يهتف[1] :

يَا رَبُّ إنّي سَائلٌ كمـا تَرى ... مُشْتَمِلٌ شُمَيْلَتي كمـا تَرى[2]
وشَيْخَتي جالسةٌ فيمـا تَرى ... والبَطْنُ مِنِّي جَائعٌ كمـا تَرى
فما تَرى يا رَبَّنا فيما تَرى

فهو يسأل الله الرزق بل أقله ليقيم به أوده، ويكسب حياته، لشدة ما يقاسي من الجوع، وطول ما يحس من الحرمان، ويأمل أن يفرج الله عليه ويلطف به.

ومثلها بل أدل منها على الغضب والحزن لتباين الحظوظ في طيبات الحياة بين الناس، وانعدام المساواة والعدل فيهم هذه الأبيات التي رواها الأصمعي لشاعر من تميم شاهده ممسكاً بأستار الكعبة وهو ينشد[3] :

أَيَا رَبِّ ربَّ النَّاسِ والمَنِّ والهُدَى ... أَمَا لِي في هذا الأنـامِ قَسِيمُ[4]
أَمَا تَسْتَحي مِنِّيَ وقد قُمْتُ عَارِياً ... أُنَاجِيكَ يا ربـي وأنت كَرِيمُ
أَتَرْزُقُ أَبْنَاءَ العُلوجِ وَقَدْ عَصَوْا ... وتَتْرُكُ قَرْماً مِنْ قُرومِ تَميـمِ[5]

فهو يحمل في أطواء نفسه من الحقد والموجدة والثورة شيئاً كثيراً لما ابْتُلِيَ به من العدم والحرمان، مع ما يبصره من ثراء غيره واستمتاع سواه.

---

(١) المحاسن والمساوىء ص: ٥٨٥.

(٢) المشتمل : المتلفع المتلفف بثوبه. الشّميلة : تصغير شملة، وهي كساء يشتمل به.

(٣) المحاسن والمساوىء ص : ٥٨٥.

(٤) القسيم : الحظ والنصيب.

(٥) القرم : السيد المعظّم.

ويمضي في كثير من القوة والوضوح يقيم الحجة على الله لأنه يسبغ من نعمته على أبناء الكفار من الأعاجم، بينما يُضيِّق على سادات العرب. وكأنما هو يرفض إرادة الله ومشيئته وقسمته الأرزاق بين الناس قسمة يَراها ظالمةً وجائرةً لا يَرْعى معها إيمان العرب وتوحيدهم وأصولهم العريقة الكريمة.

وأهم من ذلك أن الفقراء المظلومين أخذوا ينتظمون في جماعات متمردة ثائرة، تنتهز الفرص التي يضعف فيها نفوذ السلطان على البوادي والمدن للإغارة وقطع الطرق ونهب الأسواق، ونحن نسوق طائفة من أخبارهم وثوراتهم لنبين بها قوتهم وخطرهم. ففي سنة سبع وستين ومائة تمرد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق، وانتهكوا المحارم، وتركوا الصلاة، فأرسل المهدي إليهم جيشاً فقاتلهم، واشتدّ القتال فَصَبّر العرب ولم يزالوا يقاتلون حتى ظفروا بالجيش وقتلوا أكثر جنوده، فقويت بعد ذلك شوكتهم، وزاد شرّهم[1].

وفي سنة إحدى ومائتين غلب الشطار[2] على بغداد والكرخ وآذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق. فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمتنع عليهم. وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يرفض لهم طلباً. وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال. وكانوا يجبون المارّة في الطرق وفي السفن ويقطعون الطرق جهراً، ولا أحد يعدو عليهم حتى كان الناس منهم في بلاء عظيم. ثم كان آخر أمرهم أن خرجوا إلى قطربل فانتهبوها علانية وأخذوا المتاع والذهب والفضة والغنم والبقر والحمير، وأدخلوها بغداد، وجعلوا يبيعونها، فشكاهم

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ٧٧.

(٢) الشطَّار : جمع شاطر وهو من شطر عن أهله شطورة وشطَّارة إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً أو مخالفاً أو أعياهم خبثاً.

الناس الى السلطان، واستعدوه عليهم، فلم يتمكن من الظفر بهم أو التعرُّض لهم. فاجتمع أهل بغداد وعزموا على مقاومتهم يتزعمهُم خالد الدريوش وسهل ابن سلامة الخراساني، فانضم إليهما خلق كثير، غير أنهما لم يتمكنا من القضاء على الشطار. ولم تزل الأحوال مضطربة ببغداد حتى تدخل الحسن بن سهل ودفع لهم مالاً عظيماً، فكفوا عن أعمالهم(١).

وفي سنة تسع عشرة ومائتين سيطر الزط(٢) على طريق البصرة وعاثوا فيها وأخذوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، فندب المعتصم لمحاربتهم عُجَيْف بن عنبسة فقاتلهم قتالاً عنيفاً حتى تمكن من الفتك بهم وأَسْرِ بقيتهم(٣).

وفي سنة ثلاثين ومائتين غلب أعراب من بني سليم على المدينة وما حولها، ورأسهم عُزَيْزَة بن قَطَّاب السلمي، فأرسل إليهم والي المدينة حَمَّادَ بن جرير الطبري فقاتلهم، فلم يقدر عليهم، ولم يزل ينازلهم حتى قتلوه، فقويت شوكتهم، واستباحوا القرى والمَناهل فيما بين مكة والمدينة وقطعوا الطريق، مما جعل الواثق يوجه إليهم بغا الكبير التركي، فقتل بعضهم وأسر غيرهم، وهَزَم سائرهم، واحتبس قوماً منهم، فَنَقَبُوا السجن، والتحموا مع أهل المدينة في معركة حامية. ثم تعقب بغا الكبير سائر الأعراب من العشائر المختلفة من بني هلال وغطفان وفزارة وأشجع، صانعاً بهم ما صنع ببني سليم من القتل والحبس(٤).

ويغلب على المؤرخين القدماء الذين نقلوا إلينا أخبار هذه الثورات أن يصفوا القائمين بها والمتزعمين لها بالفساد والفسوق والانحراف عن الدين،

---

(١) تاريخ الطبري ١١ : ١٠٠٨ — ١٠١٢، والكامل في التاريخ ٦ : ٣٢٤.

(٢) الزط، جيل من السودان والهنود، الواحد زطي مثل الزنج وزنجي، والروم ورومي.

(٣) تاريخ الطبري ١١ : ١١٦٧، والكامل في التاريخ ٦ : ٤٤٣.

(٤) تاريخ الطبري ١٢ : ١٣٣٦ وما بعدها، والكامل في التاريخ ٧ : ١٢.

دون التعرض للأسباب التي جعلتهم يثورون ويتمردون، ويميلون إلى قطع الطرق، وانتهاب الأسواق. فهم في نظرهم خارجون على النظام، عابثون بالقانون، ثائرون على السلطان، وهم على التحقيق لم يكونوا كذلك، وإنما كانوا يُحَقِّقون وجودهم، ويكسبون أقواتهم برماحهم وسيوفهم، لأن الدولة أهملتهم وظلمتهم، ولم توفر لهم شيئاً من وسائل الحياة، ولا أجرت عليهم بعض الأرزاق. يشهد على ذلك أن هذه الثورات لم تكن انتفاضات عابرة، ولا كان يتزعمها وينضم إليها أفراد قلائل ميالون بطبعهم الى العبث والفوضى، وإنما كانت انتفاضات استمرت شهوراً طويلة، وشارك فيها أعداد كثيرة حملت الخلفاء على أن يرسلوا الجيوش والقادة للقضاء عليهم. ولمْ تتوقف هذه الثورات في العصر العباسي الثاني، وإنما اتصلت واتخذت شكل الثورة الاجتماعية على أيدي الزنج في مطلع العصر العباسي الثاني. فقد كان الزنج يعملون في المزارع الكبيرة بأعداد ضخمة عملاً مرهقاً بدون أجر، كما كانوا يعيشون معيشة بائسة، فإذا هم لا يكاد صاحب الزنج ينشر مبادئه فيهم، ويدعوهم إلى الانضمام إليه، حتى يسارعوا إلى ذلك تجذبهم مبادئه التي نادى بها من العدل والانصاف والمساواة بين الطبقات، كما جذبت غيرهم من الأعراب، وحتى هدّدوا الدولة العباسية بالسقوط، وحاربوها حرباً عنيفةً مدة أربعة عشر عاماً متصلة[1].

وإذا كان المؤرخون لم يُبيِّنوا لنا سبب تَمَرُّد الأعراب وغيرهم من الفقراء على أوضاعهم السيئة، وأحوالهم البائسة، مما أغواهم بقطع الطرق، وإخافة السبل، والإغارة على المدن، وسرقة التجار، فإن الشعراء الفقراء، واللصوص الشعراء قد صرَّحوا تصريحاً لا لبس فيه بأن الحرمان والضيق والشدة هي التي أجبرتهم على الشكوى والنقد حيناً، وعلى الثورة والتمرّد حيناً ثانياً، مما

(١) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص : ٧٥ وما بعدها.

سنتحدث عنه حديثاً طويلاً مفصلاً بعد حين، نوضح فيه أنهم لم يكونوا ميّالين بفطرتهم إلى الخروج على النظام وإيذاء الناس، والتعرّض لهم بالمكروه، وإنما كانوا مدفوعين إلى ذلك دفعاً، مكرهين عليه إكراهاً، ليظفروا ببُلَغ العيش التي يكسبون بها حياتهم.

— ٣ —
كثرة الفتن والاضطرابات

أقام العباسيون دولتهم على المخادعة والبطش، وثبّتوا أركان حكمهم بالاستبداد والفتك. واستئثارهم بالخلافة من دون العلويين، وتعقبهم لهم، وتنكيلهم بهم بالمراقبة والتضييق والحبس والقتل ذائع مشهور، وتتبعهم للأمويين وسفكهم لدمائهم لا في صدر دولتهم أيام أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور فحسب، بل أيضاً في أيام من جاءوا بعدهم من الخلفاء شائع مذكور[١]. ويكفي أن نذكر ما يتفق عليه المؤرخون من أن أبا مسلم الخراساني قد قتل في العهد الأول من دولتهم ستمائة ألف صبراً مع ما أراقوا من دماء العرب والمسلمين بعد ذلك، حتى نتبين مقدار ما سفكوا من الدماء، ومبلغ عنفهم بالناس وتسلطهم عليهم، واستخفافهم بهم[٢].

ومع كل ما أقاموا عليه دولتهم من الظلم والعسف، وما أشاعوه بين الناس من الرُّغب والرهب، وما ألقوه في أخلادهم من أنهم خلفاء الله في الأرض، وأنه يغتفر كل شيء إلا القَدْحَ في المُلْك[٣]، وما أحاطوا به أنفسهم من الجنود

---

(١) الأغاني ١ : ٣٢٤، ومروج الذهب ٣ : ٣٢٨، واليعقوبي ٣ : ٩٩، والفخري ص : ١٣٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٣٠، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٢٤.

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٥، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٧٦.

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٢٤، ومروج الذهب ٣ : ٤١٩.

والأحراس فإن ذلك كله لم يحل بينهم وبين انتفاض الناس عليهم، وسعيهم للإطاحة بهم.

وتكثر الفتن والاضطرابات في الدولة العباسية كثرة شديدة حتى لتعد بالعشرات، ولكنها على كثرتها يمكن قسمتها بين ثلاثة أنواع: نوع كان سببه الصراع على الحكم والتنازع على السلطان مما نجده في ثورة أبناء البيت العباسي بعضهم على بعض، وفي ثورات الخوارج والتشيعة المتصلة. ونوع كان مرده إلى نزعة الانفصال والاستقلال عن الدولة العباسية مما يتضح في انتفاضات أهل خراسان، ونوع كان مصدره البغي والطغيان في الحكم مما نراه في ثورات أهل مصر من العرب والقبط.

وليس من غرضنا أن نقف عند كل ثورة في الأمصار المختلفة. بحيث نبين أسبابها، ونفصل القول في القائمين بها، ونسجل نتائجها، لأن ذلك يخرج بنا عما نريد إثباته من أن كثرة الفتن والاضطرابات لهذا العهد أدت إلى كثرة اللصوص وإلى نشاطهم.

ولم يتصارع أبناء البيت العباسي على الخلافة طويلاً، إذ تمكن أبو جعفر المنصور من القضاء على ثورة عمه عبدالله بن علي بدمشق، وحبسه وقتله[1]، وعلى هذا النحو استطاع المأمون قتل أخيه الأمين حين اختلفا على الحكم، وأصاب بغداد حين حاصرها طاهر بن الحسين ما أصابها من الفوضى وغلاء الأسعار والدمار، حتى رثاها الشعراء وتفجعوا على ما آلت إليه[2].

أما الخوارج فأثاروا على العباسيين حروباً لم تنقطع، إذ استمرت منذ مطلع أيامهم إلى نهايتها. غير أن مصيرها كان في الغالب الإخفاق والسحق. فقد ثاروا في عهد أبي العباس السفّاح بعمان يتزعمهم الجلندي، وتمكن خازم بن

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٣٢٩، والفخري ص ١٥١.

(٢) تاريخ الطبري ١١ : ٩٣٤، ومروج الذهب ٣ : ٤٠٠ وما بعدها.

خزيمة من قتله وقتل عشرة آلاف من أصحابه بعث برؤوسهم الى البصرة[1]، كما ثاروا بفلسطين فقاتلهم أبو عون وهزمهم[2]. وانتفضوا في أيام المنصور مراراً، فقد خرج ملبد بن حرملة الشيباني بناحية الجزيرة، ولم يزل المنصور يرسل اليه الجيش تلو الجيش وهو يتغلب عليه ويقهره حتى قتله خازم بن خزيمة[3]. ثم خرج خارجي بالحبشة فوجه إليه والي مصر جيشاً هزمه وقتله[4]، وتلاه حسان بن مجالد الهمداني بالموصل فقتل عسكرها وفر إلى السند[5]، وبعد حين ثار أبو حاتم الخارجي بإفريقية واعتصم بجبال نفوسة، فسار إليه يزيد بن قبيصة في ستين ألف فارس وقتله مع أهل نجدته[6]. ثم تمردوا ببست بين سجستان وغزنين ووثبوا على معن بن زائدة الشيباني، فقتلوه[7]. ثم ثاروا بخراسان يقودهم البرم بن يوسف، فأسره يزيد بن مزيد الشيباني، ووجه به الى بغداد فقتل وصلب[8]، وفي عصر المهدي خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري بقنسرين فقويت شوكته، وكثر أتباعه، ثم قتل[9]. وخرج بالموصل ياسين التميمي واستولى على أكثر ديار ربيعة والجزيرة، ثم قضي عليه وعلى ثورته[10]، كما خرج بالجزيرة مالك الخزاعي وعظم أمره، واغتيل غدراً[11]، وكذلك اتصلت ثوراتهم وتوالت انتفاضاتهم في عهد الرشيد

---

(1) تاريخ الطبري ١٠ : ٧٩، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٥٢.
(2) النجوم الزاهرة ١ : ٣٣٢.
(3) تاريخ الطبري ١٠ : ١٢٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٨٦.
(4) النجوم الزاهرة ٢ : ٣.
(5) الكامل في التاريخ ٥ : ٥٨٤.
(6) المصدر السابق ٥ : ٦٠١.
(7) تاريخ الطبري ١٠ : ٣٦٩، اليعقوبي ٣ : ١٢٣، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٨.
(8) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٧.
(9) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٩٢، والكامل في التاريخ ٦ : ٥٧، والنجوم الزاهرة ٢ : ٤٢.
(10) الكامل في التاريخ ٦ : ٧٨.
(11) المصدر السابق ٦ : ٩٥.

إذ خرجوا بجبال باجة بإفريقية، وظفروا هناك بجيش الرشيد [1]. ثم ثار الصحصح الخارجي بالجزيرة واستولى عليها وسار منها إلى الموصل وفيها قتل [2]، وثار بها بعده الفضل بن سعيد وقتل [3]. ثم خرج بخراسان خارجي يسمى حصيناً واستبد بها ولكنه لاقى مصرعه بعد حين [4]. وعاث الفضل الخارجي بنواحي نصيبين، ونهب أموال أهلها وفر إلى الموصل وبها قضي عليه [5]. وغلب الوليد بن طريف على أرض الجزيرة، وقتل قائداً من قواد الرشيد، وهو إبراهيم بن خازم، ثم سار إلى أرمينية، وفيها كثرت جموعه، وقويت شوكته. فرجع الى الجزيرة، فحاربه يزيد بن مزيد الشيباني وقتله [6]. وتلاه خزاشة الشيباني في الجزيرة وصرع [7]. وعلى هذا النحو كان مصير أبي عمرو الشاري [8]، وحمزة الخارجي [9]، وسيف بن بكر [10]، وثروان الحروري [11]. وفي عصر المأمون شغب عليه منهم مهدي بن علوان [12]، وبلال الشاري [13] وقتلا.

---

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ١٠٨.

(٢) المصدر السابق ٦ : ١١٥.

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٠٦، والكامل في التاريخ ٦ : ١١٥.

(٤) الكامل في التاريخ ٦ : ١٢٤.

(٥) المصدر السابق ٦ : ١٢٣.

(٦) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٣١، والكامل في التاريخ ٦ : ١٤١، والنجوم الزاهرة ٢ : ٩٢.

(٧) تاريخ الطبري ١١ : ٦٤٥، والكامل في التاريخ ٦ : ١٥٢، والنجوم الزاهرة ٢ : ٩٩.

(٨) تاريخ الطبري ١١ : ٦٤٩، والكامل في التاريخ ٦ : ١٦٦.

(٩) تاريخ الطبري ١١ : ٦٥٠، والكامل في التاريخ ٦ : ١٦٨.

(١٠) تاريخ الطبري ١١ : ٧١١، والكامل في التاريخ ٦ : ١٩٧.

(١١) تاريخ الطبري ١١ : ٧١١، والكامل في التاريخ ٦ : ٢٠٥.

(١٢) اليعقوبي ٣ : ١٨٦. وتاريخ الطبري ١١ : ١٠١٦.

(١٣) اليعقوبي ٣ : ١٩٩، وتاريخ الطبري ١١ : ١١٠١، والكامل في التاريخ ٦ : ٤١٥، النجوم الزاهرة ٢ : ٢٠٩.

وبالمثل ثار الشيعة على الخلفاء العباسيين مراراً وتكراراً، محاولين الإطاحة بهم، واستخلاص الحكم منهم، ففي عهد أبي جعفر المنصور خرج بالمدينة محمد بن عبدالله، وقاتل هو وأتباعه جيشاً بقيادة عيسى بن موسى على مشارف المدينة قتالاً عنيفاً حتى قتل [1]، كما ثار أخوه إبراهيم بالبصرة، وخضعت له فارس، واشتدّ أمره، وكبر خطره، فوجه إليه أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى على رأس جيش فتك به عند باخمرا قرب الكوفة [2]. وفي أيام الهادي خرج الحسين بن علي بمكة. فسار إليه جيش عباسي، فنازله بِفَخٍّ بالقرب من مكة نزالاً شديداً. ولم يزل يصارعه حتى لاقى حتفه مع كثير من أصحابه، وبقيت جثثهم مطروحة في العراء حتى أكلتها السباع والعقبان [3]. وفي عصر الرشيد ثار إبراهيم بن إسماعيل وعلي بن الحسن [4]، وموسى بن جعفر [5]، كما خرج عليه يحيى بن عبدالله بالديلم [6]. ومحمد بن جعفر [7]. أما في عهد المأمون فتحرك بمكة محمد بن جعفر الصادق، فقبض عليه، ثم عفا عنه [8]. ثم خرج أبو السرايا بالكوفة وقتل [9]. وفي زمن المعتصم ظهر القاسم العلوي بالطالقان في خراسان، فاجتمع عليه خلق كثير، ولم يلبث أن قبض عليه وحبس، ففر من السجن واختفى [10].

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٢٨٢، مروج الذهب ٣ : ٢٩٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٥٢٩.

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٢٩٨، ومروج الذهب ٣ : ٢٩٦، والكامل في التاريخ ٥ : ٥٦٠.

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٥٥١، ومروج الذهب ٣ : ٣٢٦، والفخري ص : ١٧٢، والكامل في التاريخ ٦ : ٩٠.

(٤) النجوم الزاهرة ٢ : ٦٥.

(٥) الفخري ص : ١٧٨.

(٦) الفخري ص : ١٧٦، والنجوم الزاهرة ٢ : ٨١.

(٧) مروج الذهب ٣ : ٣٤٣.

(٨) الفخري ص : ٢٠١.

(٩) الفخري ص : ٢٠١.

(١٠) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٣٠.

ومع أن المؤرخين القدماء يرجحون أن قتل أبي جعفر المنصور لأبي مسلم الخراساني هو الذي هيَّج أهل خراسان وأغراهم بالثورة، فإنه يجب أن ينظر إلى ثوراتهم الكثيرة المستمرة نظرة أخرى، فقد دفعهم الى التمرد دوافع متعددة، منها أنهم كانوا يتأثرون بمذهب المزدكية الذي شاع بينهم قبل الإسلام، وذلك واضح في تعاليم زعمائهم الذين قادوهم واحداً بعد واحد. ومنها أنهم كانوا يحسون أن العنصر العربي الذي فتح بلادهم قد قهرهم وغلبهم، واستبد برقابهم، واستأثر بالحكم من دونهم مما كان يثير عصبيتهم القومية، ويحملهم على مصارعته لاسترداد استقلالهم، أو للمشاركة مشاركة فعلية في تولي شؤونهم وتسيير أمورهم. ومنها أنهم رأوا أن أحوالهم الاقتصادية لم تتحسن كثيراً، بل ساءت وتدهورت. وإن كان بعض الخلفاء قد سعى إلى إصلاح الخطأ ونشر العدل بينهم، فإن سعيه قصر عن إنصافهم، ورفع الحيف والعسف عنهم[1].

وأيا كانت الأسباب الصحيحة وراء ثورة أهل خراسان فالذي يعنينا أن هذا الاقليم الواسع قد ماج بالاضطراب في سنوات كثيرة، ففي سنة سبع وثلاثين ومائة خرج سنباذ بخراسان يطالب بثأر أبي مسلم، ويزعم أنه لم يمت، بل اختفى، وأنه سيعود ليملأ الأرض بالعدل. فأرسل اليه المنصورُ جَهْوَرَ بن العَجلي على رأس جيش استطاع القضاء عليه[2]. وفي سنة اثنتين وأربعين ومائة ثار إصبهذ بطبرستان، وقَتَلَ مَنْ بها من المسلمين، فوجه إليه أبو جعفر المنصور جيشاً حاصره وقبض عليه وقتله[3]. وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة تمرَّد الديلم وأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم خلائق[4]. وفي سنة خمسين ومائة

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص : ٥١، والعصر العباسي الأول للدكتور عبد العزيز الدوري ص : ٢٦٥.

(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩، والفخري ص : ١٥٠، والكامل في التاريخ ٥ : ٤٨١.

(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ١٣٩، والنجوم الزاهرة ١ : ٣٥٠.

(٤) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤١.

ثار أُستاذ سيس في جموع كثيفة، وغلب على أكثر خراسان، فقاتله خازم بن خزيمة التميمي، وحطم جيشه، ثم أسره وبعث به إلى الخليفة فقتله[1]. وفي سنة إحدى وستين ومائة استفحل خطر المُقَنَّع الخراساني بخراسان، وانضم إليه من المتمرّدين الغاضبين أعداد ضخمة، فسار بهم إلى ما وراء النهر، غير أن القائد سعيداً الحَرَسيَّ تغلب عليه، وفتك به[2]، ويقال بل مَصَّ سُمّاً فمات. وفي سنة اثنتين وستين ومائة ظهرت المُحمِّرة بجُرْجان، وعليهم رجل يقال له عبد القَهّار، فقتَلَ بَشَراً كثيراً من المسلمين، ولم يلبث عمر بن العلاء أن غزاه من طبرستان، وتمكن من قَتْلِه، وقَتْلِ رؤوس أصحابه[3]. ولكنه لم يَقْض على فرقة المُحَمِّرة، ولا على تعاليمها التي يقال إنها مستمدة من المَزْدَكِيَّة، فقد عادت الى الظهور بجرجان مع سَيْطَرتها عليها، وعَيْثِها بها في العام بعد العام[4]. وفي سنة إحدى ومائتين ظهر بابك الخُرَّمِيُّ بأذربيجان، واشتدّت شوكته بها، ولم يزل قادة المأمون ينازلونه وهو يَتَغَلَّب عليهم ويَقْهرُهم إلى أن تمكن الأفْشِين قائد المعتصم من الإيقاع به والقضاء على ثورته وأسره[5]. وفي سنة أربع وعشرين ومائتين خرج المازيار بطبرستان، وجَبى الخراج، ولم يزل يُفْسِدُ في الأرض، ويَسُوم الناس شراً حتى أُسِرَ وجِيءَ به مقيداً إلى بغداد، فَقُتِل[6].

ولم يُشْعِلِ الثورة بخراسان أهلها الأصلاء، فقد ثار بها العرب على عُمّالهم لِبَغْيِهِمْ وطُغْيانِهم. ففي سنة ثمانين ومائة وثب العرب بعاملها فقتلوه[7].

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٣٥٤، والكامل في التاريخ ٥ : ٥٩١.
(٢) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨٤، والكامل في التاريخ ٦ : ٥١، والنجوم الزاهرة ٢ : ٣٨.
(٣) تاريخ الطبري ١٠ : ٤٩٣، والكامل في التاريخ ٦ : ٥٨، والنجوم الزاهرة ٢ : ٤٣.
(٤) تاريخ الطبري ١١ : ٦٤٥، والكامل في التاريخ ٦ : ١٥٢، ١٥٩.
(٥) الأخبار الطوال ص : ٤٠٥، ومروج الذهب ٣ : ٤٦٧، والنجوم الزاهرة ٢ : ٢٣٣.
(٦) تاريخ الطبري ١١ : ١٢٦٨.
(٧) الأخبار الطوال ص : ٣٩٠.

وفي سنة تسعين ومائة خرج رافعُ بن اللّيْث بن نَصر بن سَيّار مُخالِفاً للرشيد لأن عليَّ بن ماهان حين وَلِيَ خراسان أساء السيرة، وتحامَلَ على من بها من العرب، وأظهر الجور، فثار عليه رافع. وواقعه وقعات، وانْضَمَّ إليه ثلاثون ألفاً من العرب انحاز بهم إلى سمرقند وأقام بمدينتها[1]. وثورات العرب والقبط بمصر أكثر من أن تُحصَى عَدَداً، وقد أَلْمَمْنَا ببعضها في أثناء حديثنا عن الاختلال الاقتصادي، ومن التكرار أن نُعِيد القول فيها، كما أنها مذكورة في كتاب: «الولاة والقضاة» للكندي، وكتاب: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى.

ومن الطبيعي أن الفوضى تُعَطِّل أسباب الأمن والنظام، وتَشُلّ وسائل الاكتساب والارتزاق، وتُضَيِّق على النّاس أشدّ التّضييق، بحيث يتعذر عليهم طلب الرزق، وتنقطع عنهم مؤونة المعاش. أما أبناء الطبقات الدُّنيا من المُحتاجين المُعْدَمين فليس من شك في أنهم كانوا يفتقرون في تلك الأحوال القلقة المضطربة أشدّ الافتقار، ويقاسون من المجاعة أعظم المقاساة. وإذا عرفنا أنهم كانوا يَحْيَوْن على الكفَاف، بل على الفاقة والخَصَاصة في الأيام العادية اتّضح لنا هَوْل ما كانوا يُبْتَلَوْنَ به من الشِّدَّة والعَوَزِ والسَّغَب في أوقات الفتن والاضطرابات. ومن أدلّ الشواهد على سوء حالهم وحاجتهم في حالات الهدوء والاستقرار هذه الأبيات التي رفعها أبو العتاهية إلى خليفة من الخلفاء العباسيين شاكياً إليه من غلاء الأسعار، وقلة الأعمال، وانتشار البطالة، وشارحاً له بؤس اليتامى والأرامل وجوعهم وعُرْيَهم، وناصحاً له، ومُستغيثاً به، والتي يقول فيها:[2]

مَـنْ مُبْلِـغٌ عَنّـي الإمـا ... مَ نَصائحـاً مُتَوالِيَـهْ
إنّـي أرَى الأسعـا ... رَ أسعـارَ الرَّعِيَّـةِ غَالِيَـهْ

---

(١) الأخبار الطوال، ص: ٣٩١، وتاريخ الطبري ١١ : ٧٠٧، والكامل في التاريخ ٦ : ١٩٥.

(٢) ديوانه، ص: ٤٨٧ (طبعة دار صادر ببيروت ١٩٦٤).

وأرى المكـــــــاسِبَ نَزْرَةً وأرى الضَّرورَةَ فَاشِيَـــــــهْ
وأرى غُمـــومَ الدَّهْـــرِ رَا ئحـــةً تَمُـــرُّ وغادِيَـــهْ
وأرى اليَتامَـــــــى والأرا مِلَ في البيــوتِ الخَالِيَـــهْ
مِنْ بَيْـــنِ رَاجٍ لم يَزَلْ يَسْمُـــو إلــيكَ .وَرَاجِيَـــهْ
يَشْكُــونَ مَجْهَـــدَةً بأصْواتٍ ضِعـــافٍ عَالِيَـــهْ
يَرْجُـــونَ رِفْـــدَكَ كيْ يَرَوْا مِمَّـــا لَقُـــوهُ العَافِيَـــهْ
مَنْ يُرْتجـــى للنَّـــاسِ غَيْـــرُكَ للعُيُـــونِ البَاكِيَـــهْ
مِنْ مُصِيبَـــــــاتٍ جُوَّعٍ تُمْسي وتُصْبِـــحُ طَاوِيَـــهْ
مَنْ يُرْتَجـــى لِدِفَـــاعِ كَرْ بِ مُلِحَّـــةٍ هـــي مَـــا هِيَـــهْ
مَنْ لِلْبُطـــــونِ الجائِعـــا تِ ولِلْـــجُسومِ العَـــارِيَهْ
يا ابــنَ الخلائِـــفِ لا فُقِـــدْ تَ ولا عَدِمْتَ العَافِيَـــــهْ
إنَّ الأُصولَ الطَّيِّـــــــــــا تِ لهـــا فُروعٌ زَاكِيَـــــهْ
ألْقَـــيْتُ أخبـــاراً إلــــيكَ مِنَ الرَّعِيَّـــــةِ شافِيَـــــهْ

بل إن منهم من كان يسعى في مناكب الأرض للحصول على قوته فيرد خائِباً أينما طلب الرِّزق، أو كيفما احتال له، حتى ليأْبَى عليه فقرُهُ أن يُفارِقَهُ، وعُدْمُهُ أن يَزُولَ عنه، وحتى لَتطْبِقَ عليه الكوارثُ من كل ناحية، وتَنْصبَّ عليه شرورُ الدهر وبلاياه من كل جهة. وفي ذلك يقول عمرو بن الهَدِير مصوراً بؤسه وملازمة الفقر له في غير قليل من السخرية المُرَّة، وفي كثير من الألم والحَسْرَة[1] :

وَقَــفْتُ فلا أَدْري إلـــى أَيْـــنَ أَذْهَبُ
وأَيَّ أمـــوري بالعَـــزِيمَـــــةِ أَرْكَبُ
عَجِـــبْتُ لِأقدارٍ عَلَـــيَّ تَتَابَـــعَتْ
بِنَحْسٍ فأفْنَـــى طُولَ عُمـــري التَّعَـــجُّبُ

(١) العقد الفريد ٦ : ٢١٦.

وَلمَّـا طلـبتُ الـرِّزقَ فَانْجـدَّ حَبْلُـهُ
ولم يَصْفُ لي مِنْ بَحْرِهِ العَذْبِ مَشْرَبُ[1]

خَطَبْتُ إلـى الإعـدامِ إحـدَى بَنَاتِـهِ
لِدَفْـعِ الغِنَـى إيَّـايَ إذْ جِئْتُ أخـطُبُ[2]

فَزَوَّجنيهـا ثُمَّ جَاء جِهَازُهـا
وفيـهِ مِنَ الحرمـانِ تَخْتٌ ومِشْجَبُ[3]

فأوْلَدْتُهـا الحُـرْفَ النَّقِـيَّ فمـا لَهُ
عَلَى الأرْضِ غَيْري والـدٌ حِيـنَ يُنْسَبُ[4]

فَلَـوْ تهتُ في البَيْـداءِ واللَّيْـلُ مُسْبِلٌ
عَلَـيَّ جَنَاحَيْـهِ لَمَـا لَاحَ كَوْكَبُ

ولـو خِفْتُ شَرّاً فاسْتَتَـرْتُ بِظُلْمَـةٍ
لأقْبَـلَ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَغْـرُبُ

ولـو جَادَ إنسانٌ عَلَـيَّ بِدِرْهَـمٍ
لَرُحْتُ إلى رَحْلي وفي الكَفِّ عَقْـرَبُ

ولو يُمْطَـرُ النَّـاسُ الدَّنانيـرَ لم يَكُـنْ
بِشَيْءٍ سوى الحَصْبَـاءِ رَأْسِيَ يُحْصَبُ[5]

ولـو لَمَسَتْ كَفَـايَ عِقْـداً مُنَظمـاً
مِنَ الـدُّرِّ أضْحَى وهـو وَدْعٌ مُثَـقَّبُ

وإنْ يَقْتَـرِفْ ذَنْبـاً بِبُرْقَـةَ مُذْنِبٌ
فإنَّ بِرأْسِيَ ذلكَ الـذَّنْبُ يُعْصَبُ[6]

---

(١) انجد : انقطع.

(٢) الإعدام : الفقر : الدفع : الرد والرفض.

(٣) المشجب : خشبات موثقه منصوبة توضع عليها الثياب.

(٤) الحرف، الحرمان.

(٥) الحصباء، الحجارة الصغيرة.

(٦) عصب الذنب برأسه، اتهم به ونسب إليه.

وإنْ أَرَ خَيْـــراً في المتـــام فَنَــــازِحٌ
وإنْ أَرَ شَرّاً فهـــو مِنِّـــي مُقَــــرَّبُ
وإنْ أَغْــدُ في أمْـــرٍ أُرِيدُ نَجاحَـــهُ
فَقَابَلنـــــــــــــي إلّا غُرابٌ وأَرْنَـبُ
أَمامـــي مِنَ الحِرْمـــانِ جَيْشٌ عَرَمْـــرَمٌ
ومنـــه ورائـــي جَحْفَـلٌ حِيـــنَ أَرْكَبُ[1]

وعلى هذا النحو من الجوع والضياع والشر المستطير كانت الطبقات الفقيرة تعيش في المجتمع العباسي، إذ كانت تكدُّ لكسب الرزق فيخيب كَدُّها، وتجتهد للظفر من القوت بما تحفظ به حياتها وكرامتها فلا يَرُدُّ عليها اجتهادُها شيئاً. وإذا كانت أحوالها وأوضاعها على هذه الصورة من الحرمان والشقاء والبلاء في الفترات الهادئة فممّا لا اختلاف فيه، ولا نزاع عليه أنها كانت لا تجد الزّادَ في أوقات الفتن والاضطرابات. ولو مثّلنا ببغداد وما أصابها من الخراب، وانقطاع الأرزاق، وارتفاع الأسعار في أثناء الصراع بين الأمين والمأمون على الحكم لكان فيما ابتلي به الفقراء فيها من سوء الحال والفاقة والجوع أوضح دليل على ما كان يلحقهم في سائر المدن والأمصار من الضيقَة والقِلّة في خلال الكوارث والمحن والفتن[2].

ومن المحقق أن من شأن تلك الفتن والاضطرابات التي كثرت في العصر العباسي، وانتشرت في أكثر أمصاره، وما رافقها من الشدائد والأزمات أن تُغري الفقراء ـــ وقد انقطعت عنهم بُلَغ العيش ـــ بالبحث عن ضرورات المعاش والتوسل إليها بأي طريقة من الطرق، مشروعة كانت أو غير مشروعة، بل بالاغتصاب والانتهاب. وممّا ساعد على اصطناعهم التلصّص وسيلة إلى

---

(١) العرمرم والجحفل: الجيش الكثير.
(٢) مروج الذهب ٣ : ٤٠١.

حياتهم أن الخلفاء والوزراء والعمّال لم يكونوا مشغولين بحمايتهم والمحافظة عليهم، وتوفير أسباب الحياة لهم في تلك الأوقات الصعبة، بل كانوا مشغولين بسحق الثائرين والقضاء على المتمرّدين، فهَيّأ ذلك الفرصة المواتية لمن تَلَصَّصَ منهم، لكي ينشط، ويمارس عمله في حرية دون رقيب أو حسيب، فإذا هو يتربّص بالنّاس حيناً في الطرق، ويغير عليهم حيناً في الأسواق ويسطو عليهم حيناً في الدور.

وقد احتفظ لنا القدماء بمجموعة من الأخبار تدل على نشاط اللصوص الفقراء مع الفتن والاضطرابات نشاطاً ملحوظاً، ففي سنة ثمانين ومائة حين هاجت العصبية بين أهل الشام، وتفاقم خطرها، انتشر اللصوص بالشّام، وعظم أمرهم، ولم يزالوا يسرقون وينهبون حتى عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي، فخرج إلى الشام، وأصلح بين أهلها، ثم أخذ يتعقب اللصوص، ويقتل من يقع بقبضته منهم[1]. ولكنه لم يقض عليهم قضاء مبرماً، فقد عادوا إلى الظهور بدمشق بعد ذلك[2].

وفي خلال النزاع بين الأمين والمأمون على الخلافة، ومحاصرة طاهر بن الحسين لبغداد، واضطراب الأحوال بها، وانتشار الفوضى فيها انتهز العَيَّارون هذه الفرصة فسرقوا التجار، ونهبوا أموالهم، ممّا اضطر بعضهم إلى الجلاء عنها[3].

وبالمثل كثر اللصوص في مصر مع كثرة الفتن بها، وكانوا يقطعون الطرق، ويخيفون النسبل، وكان معظمهم من العرب من القيسية واليمنية[4] وفي عهد المأمون غلبوا على خراسان، وأفسدوا على الناس حياتهم، فضجوا

---

(١) تاريخ الطبري ١٠ : ٦٣٩.

(٢) المصدر نفسه ١١ : ٧٠٦.

(٣) مروج الذهب ٣ : ٤٠٨.

(٤) النجوم الزاهرة ٢ : ٤٤، ٤٥.

منهم، وترامت أخبارهم وشكوى النّاس منهم إلى عبد الله بن طاهر، فكتب إلى عامل خراسان يُعَنِّفُهُ أشدّ التعنيف، ويهدِّدُه بالعزل إذا لم يقض على اللصوص، ولا حَمى الطرق ولا أَرضى الرعية[1].

وواضح ممّا قدمنا أن الاختلال الاقتصادي والتناقض الاجتماعي، وكثرة الفتن والاضطرابات قد أعدت لانتشار الفقر في المجتمع العباسي انتشاراً عَمّ معظم أبناء الأمة عرباً وغير عرب، كما أعَدّ لإحساس الفقراء بالمفارقات الواضحة البعيدة بينهم وبين الأغنياء الذين كانوا يحيون حياة مترفة بينما كانوا هم محرومين من ضرورات المعاش، ممّا حمل بعضهم على التمرد والثورة والسعي لإصلاح أوضاعهم البائسة سعياً اختلفت وسائله، وتنوّعت طرقه، إذ منهم من عمد إلى الشكوى والنقد والهجاء لانتزاع الدراهم القليلة من الوزراء والأغنياء أو من الشعراء المحظوظين الميسورين، ومنهم من مال إلى استخلاص حقه بالسطو على التجار، والإغارة على الدور، وانتهاب الأثرياء البخلاء، ومنهم من آثر الراحة والسلامة على النقد والتلصّص والتعرّض للمكاره، ووجد في التّطفيل وسيلة إلى مشاركة الأغنياء في مآدبهم وإشباع جوعه ممّا سنفصل القول فيه بعد قليل.

---

(١) العقد الفريد ١ : ٥٠، ونهاية الأرب ٦ : ٤٧.

الفصل الثاني

الصعاليك في المجتمع العباسي

— ١ —
الصعاليك في المجتمعين الجاهلي والأموي

كان للتقاليد القبلية التي احتكم إليها العرب في حياتهم، ولتوزيع الثروة توزيعاً غير عادل بين قبائلهم أثر واضح في نشأة ثلاث طبقات من الصعاليك في الجاهلية(١). أما الطبقة الأولى فطبقة الشذاذ والخلعاء الذين تخلت قبائلهم عنهم، وتبرأت منهم، إما لما جَرُّوه من الجرائر عليها، وإما لفساد سلوكهم فيها. ومن أشهرهم حاجز الأزدي(٢)، وقيس ابن الحَدَّادية(٣)، وأبو الطَّمحان القَيْني(٤). وأما الطبقة الثانية فطبقة الأغربة السود الذين سرى السواد إليهم من أمهاتهم الحبشيات، والذين لم تكن قبائلهم تُسوّي بينهم وبين أبنائها الأصلاء ممن ورثوا عروبة الأصل، ونقاء الدم في الآباء والأمهات، ومن أذكرهم السُّلَيْك ابن السُّلكة(٥)، وتأبط شرّاً(٦)، والشنْفَرى(٧). وأما الطبقة الثالثة فطبقة

---

(١) انظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور يوسف خليف، والعصر الجاهلي ص : ٣٧٥.

(٢) الأغاني ١٣ : ٢٠٩.

(٣) الأغاني ١٤ : ١٤٤.

(٤) الشعر والشعراء ص : ٣٨٨، والأغاني ١٣ : ٣.

(٥) الشعر والشعراء ص : ٣٦٥، والأغاني ١٨ : ١٣٣.

(٦) الشعر والشعراء ص : ٣١٢، والأغاني ١٨ : ٢٠٩، وشرح شواهد المغني ص : ٥٢، وخزانة الأدب ١ : ٦٦.

(٧) الأغاني ٢١ : ٨٧، وخزانة الأدب ٢ : ١٤.

الفقراء الذين كانوا يحيون حياة شاقة قاسية لم يجدوا معها ما يعينهم على أعباء العيش، بل على كسب أرزاقهم، وإقامة أرماقهم ومن أخطرهم عروة بن الورد العبسيّ[1]. وصعاليك قبيلتي هذيل التي كانت تقيم بالقرب من مكة، وَفَهْمُ التي كانت تسكن بالقرب من الطائف.

وقد جمع الفقر والتشرّد والتمرّد بين صعاليك هذه الطبقات الثلاث، وعاشوا في القفار ومجاهل الأرض، مؤمنين بأن الحق للقوة، وأنه لا سبيل إلى المحافظة على حياتهم، وتحصيل أقواتهم، وتحقيق وجودهم إلا بالغزو والإغارة للسلب والنهب. ومن أجل ذلك كانوا يغيرون على المناطق الخصبة وعلى القوافل والقبائل والأسواق، ويسلبون منها ما يسلبون، ثم يعودون الى معاقلهم الحصينة في الصحراء.

واتصف أكثر الصعاليك الجاهليين بالشدّة والاحتمال والصبر، والشجاعة والقوة والمضاء، والكرم والترفع والتسامي، لا لأنهم لم يكونوا يغزون السادة النبلاء الكرماء، ولا لأنهم كانوا أباة أعزاء فحسب، بل لأنهم كانوا أيضاً يقتسمون ما يغنمون بالتساوي، مع البر بالضعفاء والمحتاجين من قبائلهم.

ولم تتوقف حركة الصعلكة في العصر الأموي، بل ظهرت فيه وقويت قوة شديدة، ولعل فساد الحياة الاقتصادية، واضطراب الأحوال السياسية، والتمسك بالروح الجاهلية هي أهم الأسباب التي أدت الى نشأة الصعاليك الأمويين.

أما من الناحية الاقتصادية فلم تكن الأموال التي ترد إلى بيت المال قليلة بحيث لا يتمكن الخلفاء الأمويون من الانفاق منها في سبل الخير وعلى صالح الجماعة، فقد كان يحمل إلى بيت المال ملايين الدنانير من الصدقات والخراج. غير أن بعض العمال والسعاة الذين كانوا يجمعون هذه الأموال اتهموا بالخيانة وباستصفاء الأموال لأنفسهم، كما أن بعض الخلفاء الأمويين،

---

(١) الشعر والشعراء: ص: ٦٧٥، والأغاني ٣: ٧٣، وخزانة الأدب ٤: ١٩٤.

وبخاصة عبد الملك بن مروان تأثروا في تطبيق النظام المالي وجباية الصدقات والخراج بالسياسة، إذ أساءوا إساءة بالغة الى القبائل التي ناصبتهم العداء بفرضهم الصدقات الباهظة عليها، وبتشدّدهم في استيفائها منها دون مراعاة لظروفها فسواء أجدبت أرضها أو أخصبت، أو افتقر أبناؤها أو حسنت حالهم، فقد كان عليها أن تؤدي ما فرضوه عليها. أما إذا تأخر شيخ من شيوخ القبائل عن دفع ما كتب على قبيلته فكان السعاة يضربونه ضرباً مبرحاً وينكلون به أشدّ التنكيل حتى يدفع ما طلبوا منه. وشكوى شعراء القبائل من ظلم عمال الصدقات وعنفهم وطغيانهم ظاهرة سجلها الشعراء الأمويون، وقصيدة الراعي النميري اللامية التي رفعها إلى عبد الملك بن مروان يشكو فيها من عسف عماله وظلمهم مشهورة[1]، وقصيدة عمرو بن أحمر الباهلي الرائية التي أنشدها ليحيى بن الحكم بن أبي العاص والي المدينة لعبد الملك بن مروان يتظلم فيها من إرهاق السعاة لقومه معروفة[2].

وبجانب ذلك لم يفرض الأمويون في العطاء لفقراء القبائل التي عادتهم، بل كانوا يخففون الصدقات عن أنصارهم، ويتساهلون في جمعها منهم، ويجرون عليهم الأموال لكي يظلوا أوفياء لهم. ومعاوية بن أبي سفيان هو أول من سن هذه السنة للخلفاء الأمويين، إذ يقول أبو الفرج الأصفهاني : « إنه كان يفرض في العطاء لأهل اليمن »[3]، أما العدنانيون فيبدو أنه كان يمنعه عنهم.

وأهم من ذلك أن الصعاليك الأمويين لم يكونوا بعيدين عن هذه المظالم، بل كانوا متصلين بها واعين لها، ساخطين على الخلفاء الأمويين بسببها. ولعل أشهر صعلوك أموي ندد بسياسة الأمويين المالية الجائرة هو مالك بن الريب التميمي، إذ يقول[4] :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص : ٩١٢.

(٢) المصدر السابق ص : ٨٤٢.

(٣) الأغاني ١٨ : ٦٩.

(٤) الأغاني ١٨ : ١٦٤.

أَحَقّاً عَلَى السُّلْطان أَمّا الذي لَهُ فَيُعْطَى وأَمّا ما عَليهِ فَيَمْنَعُ
وما أَنا كالعِيرِ المُقيمِ لِأَهْلِهِ على القَيْدِ في بَحْبُوحَةِ الضَّيْمِ يَرْتَعُ

وأمثال مالك بن الريب التميمي من الصعاليك الأمويين الفقراء كثيرون، ومنهم شظاظ مولى تميم[1]، وأبو حردبة التميمي[2]، وأبو النشناش التميمي[3]، وغويث أحد بني كعب بن مالك بن حنظلة[4] وجحدر بن مالك الحنفي[5].

وأما من الناحية السياسية فمعروف منذ زمن بعيد أن الأمويين قربوا القبائل اليمنية، واستعانوا بأبنائها للقضاء على خصومهم السياسيين كالخوارج والشيعة والزبيريين. أما القبائل العدنانية فأبعدوها عن السياسة ولم يعتمدوا عليها، بل كانوا حرباً عنيفةً ضدّها، وإن اصطنعها بعضهم فإن النزاع ظلّ قائماً بينهم وبينها على الحكم.

وكان للسياسة الأموية المضطربة التي تنازع فيها الحكم أكثر من حزب، والتي كان الأمويون يتصدّون فيها للقضاء على أعدائهم، أثرها على بعض الصعاليك الأمويين المتمرّدين، فقد مضوا ينكرون على الخلفاء سياستهم الفاسدة، وينتقدونها نقداً دقيقاً على نحو ما يتضح في هذه الأبيات التي يُعَرِّض فيها مالك بن الريب بمكر الأمويين وتقلّبهم، ومجانبتهم للحق، وقلة وفائهم، وكثرة غدرهم، بحيث لا يؤمن جانبهم، ولا يطمأن إلى عهودهم، لأنهم إنما يذكرون القبائل العدنانية حين يشتدّ عليهم الخطر بما يربط بينهم وبينها من أواصر القربى، لكي تساعدهم على سحق الثائرين بهم، حتى إذا

---

(١) الأغاني ١٨ : ١٦٤.

(٢) المصدر السابق ١٨ : ١٦٣.

(٣) المصدر السابق ١٢ : ١٧١.

(٤) المصدر السابق ٨ : ١٦٣.

(٥) المحاسن والأضداد ص : ٧٦، وشرح شواهد المغني ص : ٤٠٧، وخزانة الأدب ٣ : ٣٤١.

تغلّبوا عليهم بمناصرتهم لهم، عادوا إلى سيرتهم الأولى معها من التنكر لفضلها، والعنف بها، يقول[1] :

لو كُنتُمُ تُنكِرُونَ الغَدْرَ قُلْتُ لكُمْ ... يا آل مَروانَ جاري منكُمُ الحَكَمُ
لا كُنْتُ أُحْدِثُ سُوءاً في إمارتكُمْ ... ولا الذي كان منّي قَبْلُ يُنْتقَمُ
نحن الذين إذا خِفْتُمْ مُجَلِّلةً ... قلتم لنا إنّنا مِنكُم لِتَعْتَصِمُوا
حتى إذا انْفَرَجَتْ عنكُم دُجُنَّتُها ... صِرْتُمْ كَجَرْمٍ فلا إلٌّ ولا رَحِمُ[2]

ومن أبرز الصعاليك الأمويين الذين أنشأتهم الأحوال السياسية المضطربة عبدالله بن الحجاج من قيس عيلان[3]، وعُبَيْد الله بن الحَرّ الجَعْفيّ[4]. أما عبدالله بن الحجاج فيصفه أبو الفرج الأصفهاني بأنه « شاعر فاتك شجاع من معدودي فرسان مضر ذوي البأس والشجاعة والنجدة »، كما يصفه أيضاً بأنه « كان شجاعاً فاتكاً صعلوكاً من صعاليك العرب، متسرعاً إلى الفتن ». وليس من شك في أنه لم يتصعلك ولا تسرع الى الفتن إلا لأنه رأى الأمويين قد أرهقوا قبيلته من أمرها عسراً، ونكّلوا بها في موقعة مرج راهط أشدّ التّنكيل. ومن أجل ذلك فإنه انحاز إلى كل من تمرّد عليهم، نكاية بهم، وإغاظة لهم، وسعياً للإطاحة بهم. فقد ثار مع عمرو بن سعيد بن العاص بدمشق على عبد الملك بن مروان، وظل معه إلى أن ظفر به عبد الملك، فهرب الى عبدالله بن الزبير بمكة، ولم يزل يقاتل معه جيش الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قتل. وأما عبيد الله بن الحَرّ الجُعْفيّ فكان في صدر حياته من خيار قومه صلاحاً وفضلاً واجتهاداً وصلاة. فلمّا قتل عثمان بن عفان انتصر له وانضم إلى معاوية

---

(١) الأغاني ١٨ : ١٦٥.

(٢) الإل : العهد. الرحم : القرابة.

(٣) الأغاني ١٣ : ١٥٨.

(٤) المحبر ص : ٢٣١، وتاريخ الطبري ٨ : ٧٦٥، وأنساب الأشراف ٥ : ٢٦٠، ٢٩١، وخزانة الأدب ١ : ٢٩١.

ابن أبي سفيان، غير أن معاوية تشكك في وفائه له، فانفصل عنه. وما هي إلا أن يموت معاوية، ويثور ابن الزبير بمكة، وتضطرب الأمصار على بني أمية حتى ييأس من صلاح الأمة وإنصاف بني أمية لقريش، فينادي أبناء الحرائر، ويأتيه خليع كل قبيلة، فكان معه سبعمائة فارس خرج بهم الى المدائن، فلم يدع مالاً للسلطان حتى استولى عليه وأخذ منه عطاءه وأعطية أصحابه الذين خرجوا معه أو ظلوا بالكوفة. ومضت حياته على هذا النمط : يغلب على الأمصار، ويطرد عمّالها منها، ويجبي خراجها ويوزعه على صعاليكه حتى غدر به قائد من قادة مصعب بن الزبير بالكوفة (١).

وأما من الناحية الاجتماعية فمعروف أن بعض القبائل قد آمنت بالإسلام، وخضعت له، وعملت بنظمه، وتخلّت عن تقاليدها الجاهلية، وخاصة العصبية القبلية. غير أن إذعانها للقوانين، وتحلّلها من عاداتها الموروثة لم يعجبا نفراً من أبنائها ممن تمكنت الروح الجاهلية منهم، واستحكمت في نفوسهم، فأخذوا يطالبونها بالمحافظة على تقاليدها، وبالخروج على السلطان، ورفض الانصياع للنظم التي تتحكم في رقابهم، وبالانتصار لهم، سواء كانوا ظالمين أو مظلومين على شاكلة ما كانت تفعل في الجاهلية. فلم تستجب لهم، لأنها اعتقدت بأن عهد الفوضى قد ذهب، وأن من الخير لها أن تخضع للقانون، وبلغ من تمسكها به أنها لم تكن تنبذهم وتخلعهم إذا تعدّدت جرائمهم فحسب، بل كانت أيضاً تتعاون مع الدولة وشرطتها للقبض عليهم وإنزال العقوبة بهم، مما زادهم سخطاً عليها وجعلهم يهجونها ويخرجون منها ويلتجئون الى الصحراء مختفين فيها عن الجواسيس الذين يبحثون عنهم والسعاة الذين يتربّصون بهم للقبض عليهم ومعاقبتهم.

ويكثر ممثلو هذه الطبقة من الصعاليك الأمويين كثرة مفرطة، وكان من أشهرهم يَعْلَى الأحول اليشكري الذي خلعه قومه وتبرأوا من جرائره الى

---

(١) الطبري ٨ : ٧٦٦، وأنساب الأشراف ٥ : ٢٩٢.

العرب، فانضم الى اللصوص وأخذ يغير على أحياء العرب، ويقطع السابلة[1]، والأحيمر السعدي الذي كان كثير الجنايات فخلعه قومه، وخاف السلطان، فخرج إلى الفلوات وقفار الأرض[2]، وعبيد بن أيوب العنبري الذي هدر السلطان دمه وخلعه قومه فاستصحب الوحوش وأنس بها وأنست به[3]، والقتال الكلابي الذي غلب عليه هذا اللقب لتمرّده وفتكه، والذي كانت عشيرته تمقته لكثرة جناياته وما يلحقها من أذاه[4].

وعلى اختلاف هذه الطبقات الثلاث التي تألّف منها الصعاليك في المجتمع الأموي، وتباين الأسباب التي حملتهم على التصعلك فقد وَحّد بينهم الفقر والتأبّد والثورة، ونزلوا بالصحراء أو بالمناطق التي لا يمتد إليها نفوذ الدولة، خارجين على قبائلهم، وثائرين على السلطان، ومتخذين الغزو والإغارة وسيلة الى كسب آوادهم، ومؤمنين بأنهم لا يرتكبون خطأ، بل يحافظون على حياتهم، ويحققون الكرامة لأنفسهم.

وكان لكل طبقة من الصعاليك الأمويين مشكلة، كما كان لهم رأي فيها. أما الصعاليك الفقراء فكان الفقر أهم قضية شغلتهم، فسعوا الى التغلّب عليها بالاغتصاب والانتهاب، دون إكتراث للمهالك أو خوف من الموت، لأنهم فضلوا الحياة الكريمة على الحياة الذليلة، وفي ذلك يقول مالك بن الريب[5] :

سَيُغْنِيني المليكُ وَنَصْلُ سَيْفي   وَكَرّاتُ الكُمَيْت عَلَى التِّجار

(١) الأغاني ١٩ : ١١١.

(٢) الشعر والشعراء ص : ٧٨٧، وسمط اللآلي ص: ١٩٥.

(٣) الحيوان: ٦: ١٦٥،٢٣٦، البيان والتبيين ٤: ٦٢، والشعر والشعراء ص: ٧٨٤. وسمط اللآلي ص : ٣٨٤.

(٤) المحبر ص : ٢٢٧، والشعر والشعراء ص : ٧٠٥. وأمالي القالي ٢ : ٢٢٣. وسمط اللآلي ص : ١٣. والأغاني ٢٠ : ١٥٩، وخزانة الأدب ٣ : ٦٨٦.

(٥) الشعر والشعراء ص : ٣٥٣.

وأما الصعاليك السياسيون فكان الظلم السياسي أهم مشكلة استولت على تفكيرهم، فعملوا على التخلّص منها بالثورة على الأمويين ومحاربتهم ابتغاء القضاء عليهم، وإقامة دولة الصعاليك التي لا فرق فيها بين غني وفقير، ولا بين رفيع ووضيع. وكان عبيد الله بن الحَرّ الجُعْفيّ على ما يُنْسَب إليه من السطوة والفتك. لا يستكبر على صعاليكه، وإنما كان يعاملهم معاملة حسنة. وَيُسَوّي بينهم وبين نفسه لا من خوضه المعارك معهم، بل أيضاً في اقتسام ما يستولي عليه من الأموال بالتساوي والإنصاف، وفي ذلك يقول[1] :

إذا ما غَنِمنَا مَغْنَماً كان قِسْمَةً ... ولم نَتّبِعْ رَأْيَ الشّحِيحِ المُتَارِكِ
أَقُول لهم كِيلُوا بِكُمّةِ بَعْضِكُم ... ولا تجعلوني في النّدَى كابن مالكِ[2]

وأما الصعاليك الذين أنشأهم سريان الروح الجاهلية في نفوسهم واستبداد الحمية الأعرابية بسلوكهم فكانت أخطر مشكلة صادفتهم مشكلة تخلّي قبائلهم عن العصبية القبلية، فأخذوا يحضونها على التماسك والتمرّد على القانون، فلمّا لم تستمع إليهم، ولم تأخذ برأيهم أمعنوا في ذمّها واتهامها بالعجز والضعف، وأشادوا بالقبائل التي لم تستسلم للسلطان، وإنما ثارت عليه، ونوّهوا بسادتها واتّخذوهم مثلاً يحتذى. وفي ذلك يقول القتال الكلابي متبرئاً من عشيرته لقعودها عن مساندته، ومتمنياً لو كان ينتسب إلى غيرها من العشائر التي لم تزل تنتصر لأبنائها وتفتك بأعدائها دون مراعاة للقانون أو خوف من عقاب السلطان :[3]

يا ليتني والمُنَى لَيْسَتْ بِنَافِعَةٍ ... لِمالِكٍ أو لِحصْنٍ أو لِسَيّارِ[4]

---

(١) أنساب الأشراف ٥ : ٢٩٢.

(٢) ابن مالك. هو ابراهيم بن الأشتر.

(٣) ديوانه ص : ٥٥.

(٤) مالك وحصن وسيار : من بني فزارة، وهم بيت قيس.

مِنْ مَعْشَرٍ بَقِيَتْ فِيهِمْ مكارِمُهُمْ   إنَّ المكارمَ في إرْثٍ وآثـارِ
لَا يتْركونَ أخاهُـمْ في مُوَدَّأةٍ   يُسْفَى عليه دَلِيكُ الذُّلِّ والعَارِ (١)
وَلَا يَفِرُّونَ والمَخْزاةُ تَقْرَعُهُـمْ   حَتَّى يُصيبُوا بأيْدٍ ذاتِ أظْفارِ (٢)

وواضح أن حركة الصعلكة لم تضعف ولا توقفت في العصر الأموي، وإنما ظهرت من جديد كما ظهرت في المجتمع الجاهلي، مع اختلاف بعض الأسباب التي أنشأت الصعاليك الأمويين عن الأسباب التي أنشأت الصعاليك الجاهليين، لتغير طبيعة الحياة، وتبدّل نظام الحكم، مما استتبع اختلاف المشاكل التي كانوا يُعَانُونَها، والغايات التي كانوا يسعون اليها.

ولكن الصعاليك الأمويين لا يختلفون عن الصعاليك الجاهليين في ظاهرة مهمة، وهي أنهم جميعاً عاشوا مشرّدين منبوذين مطاردين مستقرّين في مجاهل الأرض، وفلوات الصحراء، وساعين إلى الانتصاف لأنفسهم ورفع الظلم عنهم، واستخلاص أقواتهم بالإغارة والغزو، وباستخدام السلاح من سيوف ورماح في غاراتهم وغزواتهم. ومرد ذلك إلى أن البيئة في المجتمعين الأموي والجاهلي لم تختلف، فقد ظلت أكثر القبائل العربية تنزل بالصحراء ممّا أدّى إلى تشابه أعمالهم ووسائلهم، كما أن الروح العربية وما تقوم عليه من الأنفة والإباء والمخاطرة بالحياة في سبيل الكرامة لم تزل تتحكم في نفوس الصعاليك الأمويين، لأنهم كانوا من العرب الذين لم يفارقوا مجتمع البادية، ولا تحلّلوا من الحميّة الأعرابية.

---

(١) المودأة : الشدة. الدليك : التراب الذي تسفيه الريح.

(٢) تقرعهم : تردعهم عن القعود.

ـ ٢ ـ
تطور الصعاليك مع تطور المجتمع العباسي

تختلف حركة الصعلكة في المجتمع العباسي عنها في المجتمعين الجاهلي والأموي اختلافاً بيِّناً، لا بظهور طبقة جديدة من الصعاليك، ولا باختفاء طبقة قديمة منهم فحسب، بل أيضاً في تغير أعمالهم ووسائلهم التي كانوا يصطنعونها لتحقيق أهدافهم وغاياتهم. وهو اختلاف يعود الى ثلاثة أسباب أولها : انحلال الرابطة القبلية، وثانيها : تغير البيئة الجغرافية، وثالثها : استقرار الصعاليك وارتباطهم بأزواجهم وأولادهم.

أما انحلال الرابطة القبلية فيتمثل في أن المجتمع العباسي لم يكن يتألف من العناصر العربية وحدها، وإنما دخلت إليه عناصر أجنبية كثيرة. وهي عناصر امتزجت بالعرب امتزاجاً قوياً لا في بيئات المدن كبغداد والكوفة والبصرة ودمشق، بل كذلك في بيئات الأمصار التي فتحوها منذ حين كخراسان ومصر، والتي انتقل إليها بعد الفتح مجموعات من قبائلهم، لم تعاشر أهلها الأصليين فحسب، بل استقرت واحترفت الزراعة مثلهم.

وفرق بعيد بين المجتمع العباسي الذي غلب عليه الفرس في نظم الحكم وفي أسباب الحضارة المادية التي تكلف العباسيون نقلها تكلفاً وأسرفوا فيه اسرافاً حتى ليصف الجاحظ دولة بني العباس بأنها، « عجمية خراسانية »[1]، وبين المجتمع الأموي الذي كان امتداداً للمجتمع الجاهلي لغلبة العرب عليه، وتمسكهم بتقاليدهم فيه، حتى ليصف الجاحظ دولة بني مروان بأنها : « عربية أعرابية »[2].

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٣٦٦.

(٢) المصدر السابق ٣ : ٣٦٦.

ومن الطبيعي أننا لا ننكر أن بعض العشائر العربية التي ظلت تعيش في بوادي الحجاز ونجد، أو في بادية البصرة وبادية الشام استمرت تحيا حياة الرّعي والتنقّل، وتحتفظ بغير قليل من عاداتها الموروثة، غير أنها لم يكن لها شأن خطير في المجتمع العباسي، لأنها كانت منفصلة عنه، لا تؤثر فيه ولا تتأثر به إلّا قليلاً.

وكان من نتائج هذا التغير الذي أصاب المجتمع العباسي لإنزواء القبائل العربية فيه، وكثرة الأعاجم من الفرس وغير الفرس به أنه لم يعد يقوم على أساس قبلي، بل على أساس المواطنة والمنفعة المشتركة بين العرب وغيرهم في المدن والأمصار. وبذلك انحلّت فيه الرابطة الدموية القبلية التي كانت تشدّ أبناء كل قبيلة في الجاهلية بعضهم إلى بعض، وتوحّد بينهم، وتلاشت مع انحلالها التقاليد والقوانين التي كانوا يحتكمون إليها في حياتهم، كقانون الأخذ والثأر، أو قانون الخلع، أو قانون التفريق بينهم وفاقاً لأصولهم ونقاء دمائهم. وبذلك أيضاً اختفى من المجتمع العباسي الصعاليك الخلعاء والشذاذ، الذين كانت تتخلى قبائلهم عنهم في الجاهلية وعصر بني أمية لانحرافهم وكثرة جناياتهم، كما اختفى الصعاليك السود الذين كانوا يعرفون بأغربة العرب، ولم يكن آباؤهم يعترفون بهم، ولا كانوا ينظرون إليهم نظرة المساواة مع إخوانهم من أبناء الحرائر.

وأما تغير البيئة الجغرافية فيتضح في أن الصحراء لم تعد تشكل الوطن الأكبر الذي يقيم فيه العرب وغيرهم، وإنما أصبحت موطناً لبقية القبائل التي لم تنزح عن الجزيرة العربية، أو التي ارتحلت إلى بادية البصرة، وبادية الشام. أما سائر الأمة فقد أخذ يسكن في البيئات الزراعية وفي المدن التي خطّطت تخطيطاً دقيقاً، وشيّدت بها الدور وأقيمت فيها الأسواق للتجار على اختلافهم.

وفي هذه البيئة المتحضّرة المستقرّة نشأ أكثر الصعاليك العباسيين،

ومارسوا أعمالهم فيها. وهي بيئة لا تصلح فيها الوسائل القديمة التي اعتمد عليها الصعاليك الجاهليون والأمويون، والتي كانت تقوم على الغزو والإغارة مع الاعتماد على الأفراس والسيوف والرماح. ومن أجل ذلك كان لا بد من تغير وسائل الصعاليك العباسيين لكي تتلاءم مع مجتمعهم الجديد، على نحو ما تلاءمت وسائل رفاقهم من الصعاليك الجاهليين والأمويين مع المجتمع البدوي، والبيئة الصحراوية.

وثالث الأسباب استقرار الصعاليك العباسيين وارتباطهم بأزواجهم وأولادهم، مع حرصهم على العناية بهم، والرعاية لهم، مما يميزهم عن الصعاليك الجاهليين الذين كانوا فرساناً مغامرين لا يبالون بالموت، ولا يخافون المكاره. وهي نغمة بدأت تظهر في شعر الصعاليك الأمويين الذين سئم بعضهم حياة التشرّد والمطاردة والبعد عن الأهل، وحنّ حنيناً فيّاضاً إلى الحياة الهادئة واستئناف المعيشة مع الأهل والأقارب، على نحو ما يتضح في قول الخطيم العُكْلي[1] :

أَلا لَيْتَ شِعْري هَلْ أَبِيتَنَّ ليلةً
بأَعْلَى بُلَيٍّ ذي السَّلامِ وذي السِّدرِ[2]
وهل أَهْبِطَنْ رَوْضَ القَطا غَيْرَ خائِفٍ
وهل أُصْبِحَنْ الدَّهْرَ وَسْطَ بني صَخْرِ
وهَلْ أَرَيَنْ بين الحَفِيرَةِ والحِمَى
حمى النِّيرِ أو بأُكْثُبَةِ الشُّعْرِ[3]
جَمِيعَ بني عمرو الكِرامِ وإخوتي
وذلك عَصْرٌ قد مَضى قَبْلَ ذا العَصْرِ

---

(١) معجم البلدان ١ : ٧٣٦، ٢ : ٣٤٤.

(٢) بلى : ماء. السلام والسدر : نوعان من شجر البادية.

(٣) الحفيرة : ماء أو موضع، حمى النير : موضع بالدهناء.

وتظهر هذه النغمة بصورة أوضح في حياة الصعاليك العباسيين، لأنهم لم يألفوا حياة التشرد والمخاطرة، وإنما عاشوا في المدن مع أزواجهم وأولادهم يسعون لكي يوفروا بُلَغَ العيش لهم، ويحرصون على أن يظلّوا بقربهم خوفاً عليهم من الضياع، مما جعلهم لا يميلون الى المغامرة، ولا إلى الإغارة، حفاظاً على حياتهم، وضمان أسباب المعيشة لأولادهم، ومما جعلهم يعتمدون على وسائل أخرى للحصول على أرزاقهم.

هذه الأسباب الثلاثة كان من شأنها أن تطورت حركة الصعلكة في المجتمع العباسي تطوراً اختلفت معه طبقاتهم، وتغيرت الوسائل التي كانوا يتخذونها إلى بلوغ أهدافهم فالصعاليك في المجتمع العباسي يتألفون من ثلاث طبقات : طبقة الفقراء المعدمين البائسين، وطبقة اللصوص الثائرين، وطبقة من العَيّارين والفتيان والطُّفَيْليين.

وبالمثل تغيّرت وسائلهم، واختلفت من طبقة إلى أخرى، فالصعاليك الفقراء، اعتمدوا النقد اللّاذع والتشهير والتعريض، والهجاء المقذع لإكراه الوزراء والعمال والتجار والشعراء الميسورين على إجراء الصِّلات القليلة عليهم حتى يكفلوا الحياة لأنفسهم ولأولادهم.

ويصف القدماء معظمهم كأبي فرعون السّاسي، وأبي الشمقمق، وأبي الينبعي، والحمدوني بأنهم هَجّاؤون، كثيرو الفحش، خبيثو الألسنة، سريعون إلى أعراض الناس يهجونهم شرّ الهجاء وأرذله وأقبحه، عامدين إليه عمداً ليسبق إليه العامة والصبيان فيردّدوه، وليكون وقعه أشدّ عليهم، وآلَمَ لهم، وأنكى بهم. ومن ذلك قول أبي فرعون السّاسي يهجو تاجراً بالبخل والتقتير، ويعرض به أوبخ التعريض[1] :

---

(١) الورقة ص : ٥٧.

ولا يَرِيمُ الدَّهْــرَ من مكانِــهِ   أَشْجَعُ مِنْ لَيْثٍ عَلَى دُكّانِـهِ
لَا يَطْمَعُ السَّائلُ في رُغْفَانِـهِ   أَعْطانيَ الفِلْسَ عَلَــى هَوَانِــهِ

وكان أبو الشمقمق أخبثهم هجاء، وأسلطهم لساناً، حتّى كان الناس على اختلاف أقدارهم ومنازلهم يهابونه، ويتّقون فاحش هجائه. وويلٌ لمن كان يقصده ويمدحه ثم يبخل عليه أو لا يصله، وَوَيْلٌ لمن كان يسأله شيئاً من الدراهم ولا يعطيه، فقد كان يأخذ في هجائه، بل في تقطيعه وتمزيقه، مع السخرية منه، والتحقير له. ومن ذلك ما يروى من أنه وفد على داود بن بكر والي الأهواز وفارس، ومدحه فلم يحتفل به، ولا وهبه شيئاً، فهجاه هجاءً مُرّاً فيه الهزء به والإفحاش عليه، ومنه قوله[1]:

وَلَــــهُ لِحْيَــــةُ تَيْسٍ   وَلَــــهُ مِنْقَــــارُ نَسْرِ
وَلَــــهُ نَكْهَــــةُ لَيْثٍ   خَالَــطَتْ نَكْهَــةَ صَقْــرِ

ومن ذلك أيضاً ما يقال من أنه قصد عمر بن مساور، وكان يتقلد بعض أعمال الأهواز فمدحه، فلم يَحْتَفِ به، ولا وصله بصلة، فقال يهجوه مُحَقِّراً له وَمُشَهِّراً به[2]:

أنــــا بالأهْوازِ جَارٌ لِعُمَــــرْ   لِعَظِيمٍ زَعَمُوا ضَخْمِ الخَطَرْ
لَا يُرَى مِنْــهُ عَلَيْنَــا أَثَــرٌ   لا يكُــونُ الجُــودُ إِلَّا بِأَثَــرْ
إِنْ تَكُنْ وِرْقُكَ عَنَّا عَجَـزَتْ   يا أَبا حَفْصٍ فَجُدْ لي بِحَجَـرْ
يَكْسِرُ الجَــوْزَ بِهِ صِبْيَانُنَــا   وإذا ما حَضَرَ اللَّــوْزُ كُسِرْ

ويقال إن أبا الينبعي مات في السجن لأنه هجا الفضل بن مروان. فحبسه بعد أن أغرى به الواثق، وأنهى إليه أنه هجاه[3].

---

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٥١.

(٢) الوزراء والكتاب ص : ٢٣٢.

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ١٣٢، وذيل زهر الآداب ص : ٢٥٨.

أما اللصوص فكانوا يسرقون وينهبون، ولكنهم لم يكونوا يغيرون ولا يستخدمون السلاح، وإنما كانوا يعتمدون على الحيل والخدع التي يتمكنون معها من التعمية والتمويه على من يريدون السطو عليه وسرقته، كما وَطَّنوا أنفسهم على احتمال الضرب، والصبر على أهوال الحبس، وكتمان الأسرار، حتى لا يُعْرَفَ رفاقهم، ولا تُكْتَشَفَ عصاباتهم. ولهم في ذلك نوادر وطرائف سنقف عندها في الفصل الذي سنعقده لهم.

وأما الطفيليون فلم يعمدوا لا إلى الهجاء ولا إلى السرقة، وإنما كانوا يسدّون جوعهم، ويشبعون نَهَمَهُمْ وقَرَمَهُمْ بالدخول الى الأعراس والولائم دون دعوة فيصيبون فيها من طيّبات المآكل والمشارب ما حرموا منه، وما كان غيرهم يستمتع به.

— ٣ —
رواسب الصعلكة القديمة

ليس معنى ما قدمناه من تحوّل حركة الصعلكة في المجتمع العباسي تحوّلاً انعكس على طبقات الصعاليك وعلى أعمالهم ووسائلهم أنها انفصلت عن الصعلكة القديمة كل الانفصال، ولم تعد تتصل بها أي اتصال، ولا أنه لم يكن من بين الصعاليك العباسيين من تحلّى بالبسالة والشجاعة، والصبر وشدّة الاحتمال، واحتراف الغزو والإغارة، بل معناه أن الصورة الجديدة لها كانت أعم وأشمل، وأوسع وأشيع، أما الصورة القديمة فخفت وكادت تتلاشى إلّا بعض مظاهر منها تلقانا في الحين بعد الحين. وهي مظاهر كان ممثّلوها إمّا من الصعاليك المخضرمين الذين عاشوا في العصر الأموي، وامتد بهم العمر حتى عاشوا في العصر العباسي، وإمّا من العرب ومواليهم الذين ظلّوا يقيمون بالبوادي، وإمّا من العرب الذين انتقلوا الى الحواضر، ولكن روح الفروسية

بمقوماتها من الإباء والمضاء، وحب المغامرة والمخاطرة، والميل إلى القتال والنزال لم تزل تسري في نفوسهم، وتوجه سلوكهم. وهم ممثّلون كانوا على ضربين : ضرب ظلّ يغير ويغزو، ويسلب وينهب، وضرب ارتفع بعض الارتفاع عن التعرض للنّاس والاعتداء عليهم، وانضم إلى بعض العمال الذين كان يرى فيهم صورة للبطولة، والذين سحرته هممهم العالية، وانتصاراتهم الباهرة، فعاش يغنيهم ويتغنى معهم ببطولاتهم، ويشارك معهم في بعض المعارك التي كانوا يخوضونها ضدّ العابثين بأعمالهم أو الخارجين عليهم.

ولعلّ جعفر بن عُلْبَة الحارثيّ، وأبا النَّدَى مولَى بَليّ هما خير من يمثّل الصعاليك الذين استمرّوا يغيرون ويقطعون الطرق. أما أولهما[1] فكان شاعراً فارساً مذكوراً في قومه، كما كان بين سيرته وسلوكه وبين سيرة رفاقه من الصعاليك القدماء مشابه كثيرة، وربما كان لمرباه في البادية، ونشأته في العصر الأموي أثر في ذلك، إذ كان يقيم مع قومه بنجد كما عاش في العصر الأموي أكثر عمره. ومن تلك المشابه التي تجعله أقرب إلى الصعاليك الجاهليين أنه كان سيىء السلوك، إذ كان يشرب ويلهو ولا يرى في ذلك عيباً يشينه، ولا نقيصة تزري به، ما دام يتّصف بسداد الرأي وصحة العزيمة، والصبر على الشدائد والأهوال، أما العيب الحقيقي عنده فهو دناءة الأصل، وشحة النفس، وضعف الإرادة، فقد شرب يوماً حتى سكر، فأخذه السلطان وحبسه، فأنشأ يردّد المعاني السابقة وهو في الحبس في أبيات منها[2] :

لقد زَعَمُوا أنّي سَكِرْتُ وَرُبَّما ... يكونُ الفَتَى سكرانَ وهو حَليمُ
لَعَمْرُكَ ما بالسُّكْرِ عارٌ عَلَى الفَتَى ... ولكنَّ عاراً أن يُقالَ لَئِيمُ
وإنَّ امرأً دامتْ مَواثيقُ عَهْدِهِ ... عَلى دُونِ مَا لَاقَيْتُهُ لَكَرِيمُ

---

(١) أنظر في ترجمته وشعره الأغاني ١٣ : ٤٥ وما بعدها. وعيون الأخبار ١ : ١٩٣. وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ٤٤، ٤٩، ٥١، ٣٥٦. ومعجم البلدان ٢ : ٤١، ٣٧٠، ٤٠٦، ٣ : ٤٨، ٤ : ٨٤، ٧٩٠.

(٢) الأغاني ١٣ : ٤٥.

وهو يعيد إلينا بذلك صورة الصعاليك الخلعاء والشذاذ الذين كانت قبائلهم تخلعهم وتتخلى عنهم لفساد سيرتهم وانحراف سلوكهم، إما لشرب الخمر، وإما للتعدّي على الناس. ومع ذلك لم يكونوا يرون في شذوذهم أو فتكهم مثلبة تنتقص من أقدارهم أو تسيء الى سمعتهم.

وأهم من ذلك أنه كان ينحو في حياته نحو الصعاليك الجاهليين والأمويين من الإغارة والغزو للسلب والنهب، وأنه كانت لهُ عصابة تشاركه في إغاراته وغزواته، وقد احتفظ لنا القدماء بآخر مغامرة من مغامراته التي كانت سبباً في هلاكه، بل في قتله على يد والي مكة، إذ أغار على بني عقيل مع رفيقين له هما : عليُّ بن جُنْدُب الحارثيّ، والنَّضِر بن مُضارب المُعَاويّ، فأحس العقيليون بهم، وخرجوا في طلبهم، وافترقوا عليهم في الطرق، ووضعوا عليهمَ الأرصاد في المضايق، فكانوا كلّما افلتوا من عصبة لقيتهم أخرى، حتى انتهوا إلى بلاد بنيٍ نهد، فرجع عنهم العقيليون، وقد قتل منهم كثيرون، وفي ذلك يقول مصوراً إغارته الفاشلة، وتتبع العقيليين له ولرفيقيه، ونجاتهم منهم، وفتكهم بهم[1] :

وسَائِلَـةٍ عَنَّـا بِغَـيْـبٍ وَسَائِـلٍ ... بِمَصْدَقِنا في الحَرْبِ كيف نُحاوِلُ[2]
عَشِيَّةَ قُرَى سَحْبَلٍ إذ تَعَطَّفَتْ ... علينـا السَّرَايَا والعَـدُوُّ المُبـاسِلُ[3]
إذا ما رُصِدْنَا مَرْصَداً فَرَّجَتْ لَنَا ... بأيمانِنَـا بِيضٌ جَلَتْهـا الصَّيَاقِـلُ[4]
وَلَمَّا أَبَوْا إلَّا الـمُضِيَّ وقـد رَأَوْا ... بأنْ لَيْسَ مِنَّا خَشْيَةَ المَوْتِ نَاكِلُ[5]

---

(١) الأغاني ١٣ : ٤٨، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ٤٤ .

(٢) المصدق : الجدّ والصلابة، ورجل ذو مَصدَق : أي صادق الحملة يقال ذلك للشجاع.

(٣) قرى وسحبل : موضعان في ديار بني الحارث بن كعب. تعطف : كر. السرايا : جمع سرية، وهي الطائفة من الجيش. الباسل : الشجاع الشديد.

(٤) البيض : السيوف : جلا السيف : شحذه، والصياقل : جمع صيقل : وهو شحّاذ السيوف وجلاؤها.

(٥) الناكل : الجبان.

حَلَفْتُ يَميناً بَرَّةً لَمْ أُرِدْ بِهَا   مَقَالَةَ تَسْمِيعٍ وَلَا قَوْلَ بَاطِلِ(1)
لِيَخْتَضِمَنَّ الهِنْدُوانِيُّ مِنهُمُ   مَعَاقِدَ يَخْشَاها الطَّبِيبُ المُزَاوِلُ(2)
وقالوا لنا ثِنْتَانِ لَا بُدَّ مِنْهُما   صُدورُ رِماحٍ أُشْرِعَتْ أَوْ سَلَاسِلُ
فَقُلْنَا لَهُم تِلْكُمْ إِذاً بَعْدَ كَرَّةٍ   تُغادِرُ صَرْعَى نَهْضُها مُتَخَاذِلُ
وَقَتْلَى نُفوسٍ في الحَياةِ زَهِيدَةٍ   إِذا اشْتَجَر الخَطِّيُّ والمَوتُ نَازِلُ
نُراجِعُهُمْ في قَالَةٍ بَدَأُوا بِهَا   كَما راجَعَ الخَصْمَ البَذِيَّ المُنَاقِلُ(3)
لَهُمْ صَدْرُ سَيفي يَوْمَ بَطْحَاءَ سَحْبَلٍ   وَلي مِنْهُ ما ضُمَّت عَليه الأَنامِلُ

وهذا شعر يشبه شعر الصعاليك الجاهليين لا في مضمونه فحسب، بل أيضاً في أسلوبه. فأنت تراه يصف تلك الغزوة التي لم يكتب لها النجاح، وكيف أن أعداءهم تعقبوهم وأدركوهم، وخيّروهم بين الاستسلام والأسر، أو الامتناع والموت، فاختاروا العراك والمقاتلة معتمدين على شجاعتهم وبسالتهم، ولم يزالوا ينازلونهم ويطاعنونهم، حتى تغلّبوا عليهم، وفتكوا بهم ونجوا بأنفسهم.

وهو وصف طالما طالعنا في شعر الصعاليك الجاهليين وهم يتحدثون عن غزواتهم، كما أن أسلوبه أقرب إلى أسلوب الصعاليك الجاهليين لا في غرابته وصعوبته، ولا في جزالته ونصاعته فحسب، بل أيضاً في كثير من ألفاظه وكلماته وتراكيبه.

وكانت هذه المعركة التي خاضها وانتصر فيها موضوعاً أعاد فيه وأبدأ، وتحدّث عنه مراراً وتكراراً، مفرداً له غير مقطوعة وقصيدة(4)، يفتخر فيها بهمته البعيدة، وَيَتَشَفَّى من العقيليين الذين صرعهم ومزّقهم شرّ ممزّق. غير أن

---

(1) التسميع: التشهير والتشنيع.

(2) اختضم: قطع.

(3) البذي: القبيح المفحش. المناقل: الذي يتحدث مع غيره ويراجعه.

(4) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ٤٩، ٣٥٦، والأغاني ١٣ : ٤٧.

حياته لم تستقم بعدها. فقد تشرّد وتأبّد، وأخذ يحنّ إلى موطنه وعشيرته متفجعاً على نفسه، وطالباً إلى نساء قومه أن يبكينه خالص البكاء، ويرثينه صادق الرثاء، وموصياً أهله بابنه إنْ قُدّر له أنْ يموت ولا يلقاه على نحو ما يتضح في قوله[1] :

أَحَقّاً عِبادَ اللهِ أَنْ لَسْتُ رائِيـا صحاريَ نَجْدٍ والرِّياحَ الذَّواريا[2]
ولا زَائِراً شُمَّ العَرانِيـن أَنْتَمـي إلى عَامِرٍ يَحْلُلْنَ رَمْلاً مُعالِيـا[3]
إذا مَا أُتِيتَ الحارِثِيَّات فانْعَني لَهُنَّ وَخَبِّرْهُنَّ أَن لا تَلاقِيـا
أُوَصِّيكُمُ إِنْ مِتُّ يَوْماً بِعَارِمٍ لِيُغْنـيَ شيئاً أَوْ يكـونَ مَكانِيَـا[4]

ولم يسكت العقيليون عن قتلاهم، بل رفعوا أمرهم إلى السّريّ بن عبدالله الهاشمي، عامل مكة لأبي جعفر المنصور، فأرسل إلى أبيه علبة بن ربيعة، وأخذه به، وحبسه حتى دفعه وسائر من كان معه إليه. فأما النضر بن مضارب المعاوي فاقْتُصَّ منه بجراحةٍ، وأما علي بن جندب فأفلت من الحبس، وأما جعفر فأقامت عليه بنو عقيل شهوداً أنه قتل رجلاً منهم، فحكم عليه بالقتل[5]. وألقي في ظلمات السجن بمكة مدة قبل أن يقتل، وصف فيها مغالبته لأشواقه، وحنينه إلى زوجه، ووفاءه لها، وصبره على بعدها، واحتماله للهول والمكروه، وشدّته وثباته، وكيف أنه لا يرهب الموت ولا يخاف القتل، ومن ذلك قوله[6] :

---

(1) الأغاني ١٣ : ٤٨.

(2) الذواري : التي تحمل التراب وتسفيه.

(3) العرانين : جمع عرنين، وهو أول الأنف، وشم العرانين : أعزة ذوو أنفة، والشمم : الارتفاع. وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس.

(4) عارم : هو ابنه.

(5) الأغاني ١٣ : ٤٩.

(6) المصدر السابق ١٣ : ٥١.

فَلَا تَحْسَبي أنّي تَخَشَّعْتُ بَعْدَكُمْ لِشَيْءٍ وَلَا أنّي من الموتِ أفْرَقُ[1]
وكيفَ وَفي كَفّي حُسامٌ مُذَلَّقٌ يَعضُّ بِهاماتِ الرِّجالِ ويَعْلَقُ[2]
وَلَا أنَّ قلبي يَزْدَهِيهِ وَعِيدُهُمْ وَلَا أنّني بالمَشْي في القَيْدِ أخْرَقُ[3]
ولكنْ عَرَتْني من هواكِ صَبابَةٌ كما كنت ألْقىَ منك إذ أنا مُطْلَقُ[4]
فأمّا الهَوَى والوُدُّ مِنّي فَطامِحٌ إليكِ وجُثْماني بمكَّةَ مُوثَقُ

كذلك أخذ يشرح لأخيه ماعز ما يلاقي من الشدة والضيق في السجن، وكيف أنه دائماً محبوس، في رجليه القيود، وعليه الحراس، كما أخذ يحرضه على الانتصار له، والسعي لإخلاء سبيله، مذكراً له بأنه لو كان في مكانه لما تأخر عنه، بل لأسرع إليه، وهب لانقاذه، وفي ذلك يقول[5] :

تَعَلَّم وَعَدِّ الشَّكَّ أنّي يَشُفُّني ثَلاثَةُ أحْراسٍ مَعاً وكُبُولُ[6]
إذا رُمْتُ مَشْياً أوْ تَبَوَّأْتُ مَضْجَعاً يَبِيتُ لها فَوْقَ الكِعابِ صَلِيلُ
وَلَوْ بِكَ كانَتْ لَابْتَعَثْتُ مَطِيَّتي يَعودُ الحَفا أخْفافَها وَيَجُولُ[7]

ولم يلبث أن قتل، وكان قتله في خلال ولاية السري بن عبدالله على مكة ما بين سنة ثلاث وأربعين ومائة، وسنة ست وأربعين ومائة[8].

وأما أبو النَّدى مولى بَلّى فكان أشدّ وأفتك، وكانت حركته أطول وأعنف، كما كانت لها صلة وثيقة بظلم العمال في جباية الخراج، لأن والي مصر

---

(١) تخشع : ذل واستكان. أفرق : أفزع.
(٢) الحسام : الرمح. المذلق : المحدّد.
(٣) الأخرق : الدّهش فزعاً.
(٤) عراه : انتابه. الصبابة : الخفة تأخذ الإنسان لحزن أو فرح.
(٥) الأغاني ١٣: ٥٢.
(٦) شفه : أهزله وأضمره، الكبول : القيود.
(٧) ابتعث : حث. الحفا : المشي بغير خف. عاد الحفا اخفافها واجتالها : أفناها وذهب بها.
(٨) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٢، ٣٢٨.

الحسين بن جميل مولى أبي جعفر المنصور تشدد في جمعه من أهل الحوف من العرب سنة تسعين ومائة، فثاروا عليه، وامتنعوا عن أدائه. واستغل أبو الندى ذلك فجمع من متمرّديهم أعداداً كبيرة، ومضى يغزو بهم قرى الشام ويتربص بالقوافل، ويترصد للناس بالمراصد والمراقب، وينقض عليهم بمجموعة فينتهب ما معهم من الأموال. وكان كلما تجول وطال به الوقت ينضم إليه الشذاذ، حتى قويت شوكته، واشتد خطره، واستفحل أمره مما اضطر الخليفة هارون الرشيد أن يرسل اليه جيشاً كثيفاً من بغداد للقضاء عليه.

فقد خرج أبو النَّدى أول ما خرج في نحو ألف رجل[1]، وأخذ يقطع بهم الطرق، ويخيف السبل، ثم انحاز بهم إلى بَدَا[2] وشَغْب[3] ومدين[4]. وأغار على نواحي الشام، ولحق به من جذام وغيرها جماعة كبيرة كان من أشدهم بأساً المنذر بن عابس وسَلّام النوبيُّ، فعاثوا في الأرض وأفسدوا غاية الإفساد، وروَّعوا النّاس وأفزعوهم، وبلغوا من القتل والنهب مبلغاً عظيماً. ولم يزالوا على هذه الحال والناس يلقون منهم الأذى والمكروه حتى بلغ الرشيد أمرهم، فجهز إليهم جيشاً كبيراً، قاده يحيى بن معاذ إلى فلسطين، ومنها بعث قائداً من قادته في طلبهم، وأرسل والي مصر الحسين بن جميل جيشاً آخر بقيادة عبد العزيز بن الوزير الجزري، فدارت بينه وبينهم معركة جامية كان أبو النَّدى فيها يحث صعاليكه إما على الفرار وإما على الثبات والقتال، بمثل قوله لهم[5] :

---

(١) الولاة والقضاة ص : ١٤٣، والنجوم الزاهرة ٢ : ١٣٥، وخطط المقريزي ٢ : ٩٧.

(٢) بدا : واد قرب أيلة من ساحل البحر. وقيل بوادي القرى أو بوادي عذرة قرب الشام.

(٣) شغب : ضيعة خلف وادي القرى.

(٤) مدين : على بحر القلزم محاذية لتبوك.

(٥) الولاة والقضاة ص : ١٤٤.

أقولُ إذا الرِّفاقُ بَدَتْ لِوَجْهي ... ألَا حُلّوا رِحالَكُمُ وَطِيرُوا
وإنْ لم تَتْركُوها فاستَعِدُّوا ... لِحَرْبٍ مِثْلِ حَاصِبَةٍ تغورُ(1)
أقولُ لِصُحْبَتي كُرُّوا عَلَيْهِمْ ... فَلَيْسَ يَهُرُّهُمُ إلّا الكَرُورُ(2)

فلم يزالوا يقاتلون حتى هزموا وحتى وقع هو في الأسر، وفر سلام النوبي. ووصل يحيى بن معاذ إلى مصر فانكسر أهل الحوف، وأذعنوا بالطاعة، وأدوا الخراج، وحملوا ما كان تأخر عليهم منه بتمامه. ووقف السُّكريّ ينشله أبياتاً يمدحه فيها وينحى باللوم على من ثاروا وتمرّدوا، ثم انهزموا وتفرقوا منها قوله(3) :

قَدْ جَبَيْنَا قَيْساً ولم تَكُ تُجْبَى ... وَقَتَلْنا أَبا النَّدى وابنَ عَابِسْ
وتَركْنا لَخْماً وحَيَّيْ جُذامٍ ... لا يُطيقونَ رَفْعَ كَفِّ تُلامِسْ
أمَّنَ اللهُ بالمُبارَك يَحْيَى ... حوفَ مِصرٍ إلى دِمَشْقَ فَبالِسْ(4)
وأبَادَ الخُلّاعَ مِنْ كُلِّ أرْضٍ ... بَعْدَما حادَ عَنْهُمُ كُلُّ فَارِسْ

ثم كتب يحيى بن معاذ إلى رؤساء أهل الحوف من العرب يستقدمهم، فلما وفدوا عليه قيّدهم وحملهم معه إلى بغداد. على أن هذه الثورة تعطينا صورة عن طغيان العمال بمصر، وظلمهم للعرب فيها، وكيف أنهم لم يكونوا يستكينون للضيم، بل كانوا يهبون لرفعه عنهم مُتَكلِّفين أشدّ التكاليف، وباذلين أرواحهم في سبيله.

وكان الصعاليك الذين تجرّدوا للغارات في أول حياتهم، ثم كفّوا عنها والتحقوا ببعض القادة المغاوير أو العمال الأبطال كثيرين كثرة مفرطة، حتى

---

(1) الحاصبة : ريح شديدة تحمل التراب ودقاق الحصى. تغور : تسرع. وربما كانت الرواية الصحيحة تمور لأنها أقرب الى المعنى، فمار بمعنى تحرك واضطرب أو ذهب وجاء وتردد.

(2) هره : طرده.

(3) الولاة والقضاة ص : ١٤٥.

(4) بالس : بلد بين حلب والرقة.

ليروى أنه تجمع منهم عند أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وحده ما يقرب من عشرين ألفاً[1]. وكأنما وجدوا عنده وعند غيره من الولاة العرب الشجعان مجالاً يثبتون فيه بطولتهم، ويرضون به نزعة الفروسية التي كانت تمتلك عليهم نفوسهم، مع الانتقال من حياة الفتك والسفك، والسطو والغصب، والتشرّد والتأبد الى الحياة المستقرة والرزق الدائم الذي يكفيهم ويغنيهم. وليس من شك في أن هؤلاء العمال إنما قرّبوهم واعتمدوا عليهم لأنهم كانوا يعرفون صِحّة عزائمهم، وبُعْدَ هممهم، وحسن غنائهم، وصدق بلائهم في الحروب، فكانوا يضمّونهم إلى جيوشهم، ويستعينون بهم للمحافظة على أعمالهم وولاياتهم. ولقمع العابثين والمفسدين بها، وسحق الخارجين والثائرين فيها.

ولعل خير من يمثل الصعاليك التّوّابين هو بكر بن النطّاح، الشاعر الشجاع البطل الفارس المقدام. فقد كان في صدر حياته صعلوكاً يضيب الطرق، ثم أقصر عن ذلك[2]. ومن العجيب حقاً أن القدماء أهملوا أخباره وأشعاره التي تتصل بدور الصعلكة من حياته، ولو نقلوها إلينا لاستطعنا معرفة سبب تصعلكه، ولزوّدونا بمادة تغني في هذا المقام.

وأوّل من شدّه إليه من القادة هو يزيد بن مزيد الشيباني، القائد المشهور لعهد المهدي، والهادي، والرشيد، فتقرب منه، وانضم الى جنده، فسجله في ديوان العطاء، وأجرى له راتباً. ولم يزل يمدحه ويشيد ببطولته حتى افتخر في خلال قصيدة مدحه بها بقبيلته فخراً آذى الرشيد وأغضبه عليه غضباً شديداً، لأنه انتقص من شأن قريش. وانتقد الخلافة العباسية وما تقوم عليه من الحكم الاستبدادي الوراثي، مُرَدِّداً أن قريشاً إنما فَضَلت العرب وشرفتهم في الجاهلية

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٥٤.

(٢) الأغاني ١٧ : ١٥٣، وفوات الوفيات ١ : ١٤٦.

يوم أن كانوا في فوضى من الأمر، مما لا يعطيها الحق في حكمهم بعد أن أسلموا، ومما لا يجعلها أهلاً له على امتداد العصور[1] :

فإنْ يَكُ جَدُّ القَوْمِ فِهْرَ بن مَالكٍ   فَحَسْبِيَ فَخْراً فَخْرُ بكرِ بنِ وائلِ
ولكنَّهُمْ فَازوا بإرْثِ أبيهِمُ   وكُنَّا على أمْرٍ منَ الأمْرِ بَاطِلِ

فاستدعى الرشيد يزيد بن مزيد ولامه وعنفه لأنه آوى بكراً، ومكنه من مجلسه، وسمح له أن يسوي بين ربيعة وقريش في الفضل، وطلب إليه أن يحضره لكي يقتص منه. ولكنه لم يحمله إليه، بل أبلغه ما دار بينه وبين الرشيد، ونصحه بالاختفاء في الجزيرة، ووهبه ألفي درهم، ثم أسقطه من الديوان. فلم يزل مستتراً بها حتى توفي الرشيد[2]، ويبدو أنه لم يتصل بعد ذلك بيزيد بن مزيد، مع أن راوي الخبر يقول إنه عاد إليه بعد وفاة الرشيد، وهو خطأ وقع فيه، لأن يزيد بن مزيد استشهد سنة خمس وثمانين ومائة[3]، بينما توفي الرشيد سنة ثلاث وتسعين ومائة.

ثم اتصل بكر بن النطاح بأبي دلف العجلي القائد المظفر لعصر الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم، وعامل هَمْذان وبلاد الجبل، وانقطع إليه، فجعله من الجند، وأجرى عليه رزقاً سلطانياً[4]، وانعقدت بينهما مَودَّة صادقة. والراجح أنه كان يشترك معه في بعض الحروب التي كان يقود الجيوش فيها بنفسه لردع من كانوا يعيشون بِعَمَلِهِ فساداً، أو من كانت تحدثه نفسه بالخروج والتمرّد، يظهر ذلك من وصفه لمعاركه وتعداده لها، ومن أدلّ الشواهد على ذلك قصيدته التائية المطولة التي نَوّه فيها به تنويهاً رائعاً،

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢١٨.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٢١٨، والأغاني ١٧ : ١٥٤.

(٣) تاريخ الطبري ١١ : ٦٥٠.

(٤) الأغاني ١٧ : ١٥٣.

وأحصى بها كل غزواته إحصاء[1]. ومن بديع مدحه له وقد لحق أكراداً قطعوا الطريق بعمله وأردف منهم فارس رفيقاً له خلفه فطعنهما جميعاً فأنفذهما، فتحدث الناس بأنه نظم بطعنة فارسين على فرس قوله[2] :

قَالُوا: ويَنْظِمُ فارِسَيْـن بِطَعْنَـةٍ   يَوْمَ اللِّقـاءِ ولا يَراهُ جَليـلَا
لَا تَعْجَبُـوا لو أنَّ طُولَ قَنَاتِـهِ   مِيلٌ إذاً نَظَمَ الفوارسَ مِيـلَا

فأمر له بعشرة آلاف درهم. وقد ظلَّ منقطعاً إليه، يشيد به، وهو يجري الصلات عليه حتى توفي أبو دلف سنة ست وعشرين ومائتين، فالتحق بمالك بن علي الخزاعي الذي كان يتولى طريق خراسان فأحسن تَقَبُّلَه، ونظمه في جنده، وأسْنَى له الرزق[3]. فكان معه إلى أن قتله الشراة بحُلوان[4] بعد أن قاتلهم قتالاً عنيفاً، وهزمهم شر هزيمة حتى خانه الحظ، وأصابته ضربة على رأسه أودت بحياته، وبعد أن دافع عنه بكر دفاعاً شديداً، وأبلى معه بلاء حسناً، فحزن عليه حزناً عظيماً، ورثاه بمجموعة من قصائده هي من غرر شعره وعيونه، ومنها قصيدته النونية التي يصف فيها وجده وألمه لفقده، وفجيعة العرب والمسلمين لاستشهاده، والتي يعترف فيها بفضله عليه، وما كان يغمره به من الصلات التي كان يستعين بها على نُوَبِ الدهر، ونوازل الزمان، وفيها يقول[5] :

عَزَّ الغُـواةُ بِهِ وَذَلَّتْ أُمَّـةٌ   مَحْبُـوَّةٌ بِحَقائِـقِ الإيمـانِ[6]
وَبَكـاهُ مُصحَفُـه وَصَدْرُ حُسَامِهِ   والمسلمـون ودولـةُ السُّلطـانِ
أفتَحْمَدُ الدُّنيا وَقَدْ ذَهَبَتْ بمـن   كان المُجير لنا من الحَدَثانِ

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢٢٠.
(٢) الأغاني ١٧ : ١٥٥.
(٣) الأغاني ١٧ : ١٥٧.
(٤) حلوان : مدينة بالعراق قرب الجبل.
(٥) الأغاني ١٧ : ١٥٩.
(٦) حباه : أعطاه.

على أن بكراً لم يُقْصِر عن التَّصعْلك، ولا انهمك في حياة الحرب والقتال أشد الانهماك، بحيث تستنفد كل أوقاته، فقد كانت أصداء الماضي تراجعه وتعاوده، فكان يعود الى سيرته الأولى من الترصّد للناس وسلبهم. وإنما حمله على ذلك ما كان يجده من الفراغ الذي كان يقطعه باللهو والعكوف على المسرات منفقاً كل ما كان يصير إليه من الأموال من عطاء وصلات، وكان لتحوله عن البصرة التي نشأ بها، ونزوله ببغداد حيناً من الدهر عاشر في خلاله المجان أثر بعيد في اشتهاره بالملاهي والملذات من قيان وغناء وخمر، حتى لقد كان يحن إلى بغداد وطبيعتها وجواريها وهو ببلاد الجبل حنيناً زائداً يصوره قوله[1] :

نَسِيمُ المُدامِ وبَـرْدُ السَّحَــرْ هُما هَيَّجا الشَّوْقَ حَتَّى ظَهَرْ
سَقَــي اللهُ بَغْــدادَ مِنْ بَلْــدَةٍ وساكِنَ بغــدادَ صَوْبَ المَطَـرْ
ونُبِّــئْتُ أَنَّ جَواري الــــقُصو رِ صَيَّرْنَ ذِكْري حَدِيثَ السَّمَرْ

فكان يحتال للحصول على المال من أبي دلف، وكانت حجته في كل عام أن يأتي إليه ويقول له : الى جنب أرضي أرض تُباع وليس يَحْضُرني ثمنها فيأمر له بخمسة آلاف درهم، ويعطيه ألفاً لنفقته[2]. كذلك كان يتردد على غيره من العمال وينال جوائزهم، ومنهم قُرَّة بن محرز الحنفي، الذي كان يقصده بكرمان فيعطيه عشرة آلاف درهم، ويجري عليه في كل شهر يقيم عنده ألف درهم[3]. ولكثرة ما احتال وتَعَلَّل، وراجع وسأل، مله أبو دلف وقُرَّة ابن محرز، ولاماه وردّاه، إذ يروى أنه جاء إلى أبي دلف في بعض السنين محتالاً عليه بنفس الحيلة، فقال له أبو دلف : أما تفنى هذه الأرضون التي إلى جنب أرضك، فغضب وانصرف وأنشأ يقول[4] :

---

(١) الأغاني ١٧ : ١٥٩.

(٢) المصدر السابق ١٧ : ١٥٦.

(٣) الأغاني ١٧ : ١٥٦..

(٤) المصدر السابق ١٧ : ١٥٦.

يا نَفْسُ لا تَجْزَعي مِنَ التَّلَفِ   فَإِنَّ في اللهِ أَعْظَمَ الخَلَفِ
إِنْ تَقْنَعي باليَسيرِ تُحْتَرمي   ويُغْنيكِ اللهُ عَنْ أَبي دُلَفِ

ومر به قُرَّة يوماً وهو بالسوق وغرماؤه يطالبونه بدين، فَعَنَّفَهُ وصدَّه، فأجابه بقوله[1] :

أَلا يا قُرَّ لا تَكُ سَامِرِيّاً   فَتَتْرُكَ مَنْ يَزُورُكَ في جِهادِ[2]
أَتَعْجَبُ أَنْ رَأَيْتَ عَلَيَّ دَيْناً   وَقَدْ أَوْدَى الطَّرِيفُ مَعَ التِّلادِ[3]
مَلَأْتُ يَدي مِنَ الدُّنْيَا مِراراً   فَمَا طَمَعُ العَواذِلِ في اقْتِصادِ

ومعنى ذلك أن تبذيره كل ما ملكت يداه، وصدودَ أُصدقائه عنه، وردَّ بعض ممدوحيه له قد أدت الى افتقاره وابتئاسه في غير قليل من الأوقات، فكان لا يجد بدأً من أن ينحرف إلى السرقة والانتهاب يدفعه إليهما ذلك المبدأ الذي كان يؤمن به هو وسائر أفراد عشيرته، وهو أن من أملق منهم مال إلى انتزاع رزقه بسيفه دون صبر على الإملاق أو استجداء للناس، والذي لخصه هو في قوله[4] :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلِ

ويحدثنا أبو الفرج الأصفهاني بأنه كان كثير الجرائر والجنايات في عمل أبي دلف، وأن صديقاً له يسمى مَعْقِلَ بنَ عيسى كان يستشفع له عنده كلّما همَّ بحبسه ومعاقبته[5]. فلما مات معقل حزن عليه، ورثاه رثاء ذكر فيه ما كان يسدى إليه من جميل، وما كان يطوقه به من فضل.

---

(١) الأغاني ١٧ : ١٥٦ .

(٢) السامري : اليهودي : أو العلج من أهل كرمان وهما مثالان للبخل.

(٣) الطريف : المال المستحدث. والتلاد : المال القديم الموروث.

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ٢١٧.

(٥) الأغاني ١٧ : ١٥٦.

ولعله اتضح أن أكثر الصعاليك في المجتمع العباسي يختلفون عن الصعاليك في المجتمعين الجاهلي والأموي بحكم تفتت القبائل، ومخالطتها الأعاجم، ونزولها عن كثير من تقاليدها الموروثة، مما أدّى إلى اختفاء الصعاليك الخلعاء والشذاذ والأغربة السود، وبحكم تحضر البيئة، واستقرار العرب وغير العرب في المدن، مما نجم عنه تحول الصعاليك الفقراء واللصوص الذين كانوا يقيمون فيها عن احتراف الغزو الى اصطناع وسائل أخرى كالهجاء والنقد أو الحيل والخدع في حياتهم. ولكن الصعلكة القديمة التي كانت تقوم على الإغارة والعنف لم تتوقف كل التوقف بل ضعفت بعض الضعف، إذ استمر بعض الصعاليك يحتذون عليها لنشأتهم في البوادي أو لغلبة الحمية الأعرابية أو روح الفروسية عليهم. وهم صعاليك كان منهم من مضى يعتمد في حياته على قطع السبل، ومنهم من أقصر عن ذلك، وأخذ يحارب مع بعض القادة والعمال مؤثراً حياة القتال والنزال في الميادين المشروعة وما كانت تجلب إليه من الأموال على حياة السفك والتصعلك التي كانت تجر عليه التشرّد والمطاردة من السلطان، والبغض والنبذ من الناس.

الفصل الثالث

الصعاليك الفقراء الهجّاؤون

— ٢ —
سوء أحوالهم

استفرغ الصعاليك الفقراء لهذا العصر قسماً كبيراً من أشعارهم في وصف فقرهم وإملاقهم، وتعاستهم وبؤسهم، وما كانوا يرزحون فيه من الضيق الذي لا يخف ولا يزول، والحرمان الدائم الموصول، وما تعمقهم من المرارة المُمِضَّة، واليأس لانقطاع أسباب الرزق عنهم، وعجزهم عن توفير بُلَغ العيش التي يقيمون بها آوادهم، ويكسبون بها أرماق أولادهم، وما استقر في وعيهم من أنهم طبقة مظلومة محرومة لا شأن لها، ولا أحد يمد يد العون والمساعدة إليها. وكان غيرهم من طبقة الأغنياء الذين كانوا سبب محنتهم وبلائهم لاستبدادهم وطغيانهم — ينعمون بطيبات الأرض ومباهج الحياة ومسراتها من كل نوع. وقد لَخَّص أحدهم، وهو إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه المشهور بالحمدوني[1] — وضعهم التعيس البائس في مجتمعهم وكيف أنهم كانوا يعيشون فيه وكأنهم ليسوا منه، ويبصرون زينة الدنيا ونعمتها ولا يفوزون منها بنصيب ولا يظفرون بشيء، إذ يقول[2] :

---

(١) أنظر ترجمته وشعره في طبقات ابن المعتز ص : ٣٧١، وثمار القلوب ص : ٤٨١، وزهر الآداب ص : ٥٤٩، ووفيات الأعيان ٦ : ٩٠٣، وفوات الوفيات ١ : ٢٤، وشرح المقامات ١ : ٩٦، ٢ : ٩٥، والعقد الفريد ٦ : ٢٨٧، والعصر العباسي الثاني لشوقي ضيف ص : ٤٣٥.

(٢) المحاسن والمساوىء ص : ٢٧٧، وشرح المقامات ١ : ٩٦.

مَنْ كانَ في الدُّنيا أخَا ثَرْوَةٍ   فنحنُ مِنْ نَظَّارَةِ الدُّنيا
نَرْمُقُهَا مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً   كأنَّنا لَفْظٌ بِلا مَعْنَى

ومن أشهر ما وصفوه من جوانب فقرهم، وأحوالهم السيئة عُرْيُ أبنائهم، وجوعهم، واصفرار ألوانهم، وهزال أبدانهم، ومن ذلك قول أبي فرعون السّاسي[1] :

وَصِبْيَةٍ مِثْلِ صِغَارِ الذرِّ   سُودِ الوُجوهِ كَسَوادِ القِدْرِ
جَاءَ الشِّتَاءُ وَهُمْ بِشَرٍّ   بِغَيْرِ قُمْصٍ وبِغَيْرِ أُزْرِ
تَرَاهُمُ بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ   وَبَعْضُهُمْ مُلْتَصِقٌ بِصَدْري
وَبَعْضُهُمْ مُلْتَصِقٌ بِظَهْري   وَبَعْضُهُمْ مُنْجَحِرٌ بِحجْري
إذا بَكَوْا عَلَّلْتُهُمْ بالفَجْرِ   حَتَّى إذا لاَحَ عَمُودُ الفَجْرِ
ولاَحَتِ الشَّمْسُ خَرَجْتُ أَسْري   عَنْهُمْ وحَلُّوا بأُصُولِ الجُدْرِ
كأنَّهُمْ خَنَافِسٌ في جُحْرِ   هذا جميعُ قِصَّتي وَأَمْرِي
فَارْحَمْ عِيالي وتَوَلَّ أمْري   فأَنْتَ أَنْتَ ثِقَتي وذُخْري
كَنَّيْتُ نَفْسي كُنْيَةً في شِعْري   أنا ابو الفَقْرِ وأُمُّ الفَقْرِ

وهذا وصف ما بعده وصف لما كانت تعيش فيه الطبقة الفقيرة في المجتمع العباسي من بُؤْسٍ وجُوعٍ وشر. فقد كان أولاد أبي فرعون الساسي ضعافاً ضعفاً شديداً كأنما هم صغار النمل، ألوانهم شاحبة سوداء، وأجسادهم عارية وليس عندهم من الثياب ما يقيهم برد الشتاء، قد التفوا من حوله، فبعضهم قد علا ظهره، وبعضهم أمسك بصدره، وبعضهم ارتمى في حجره، يشكون ويبكون من الجوع، وهو يحتال عليهم، ويشفق بهم، ويَعِدهم بأنه سيسعى في الأرض من أجلهم مع انبلاج أول أضواء الصباح. ولم تكد الشمس تشرق حتى تركهم وخرج يطلب الرزق لهم، فاستقروا في ركن من أركان بيتهم، كأنهم الخنافس في الجُحْر.

(١) كتاب الورقة ص : ٥٧، وطبقات ابن المعتز ص : ٣٧٧، والمحاسن والمساوىء ص : ٥٨٥.

ومثلهم أولاد أبي الشمقمق الذين يصفهم بقوله[1] :

مَا جَمــعَ النـــاسُ لِدُنْياهُـــمْ ... أَنْفَـعَ في البــيتِ مِنَ الخُبْــزِ
والخُبْــزُ باللَّحــمِ إذا نِلْتَـــهُ ... فأَنْتَ في أَمْــنٍ مِنَ التَّــرْزِ[2]
وَقَــدْ دَنـــا الفِطْــرُ وصِبْيانُنـــا ... لَيْسُوا بِذِي تَمْـــــرٍ ولا أَرْزِ
وذاكَ أَنَّ الدَّهْـــرَ عَاداهُـــمُ ... عَداوَةَ الشَّاهِيـــنِ لِلْـــوَزِّ
كانَتْ لَهُمْ عَنْــزٌ فأَوْدَى بهـــا ... وأَجْدَبُــوا مِنْ لَبَــنِ العَنْـــزِ[3]
فَلَوْ رَأَوْا خُبْزاً على شَاهِــقٍ ... لأَسْرَعُــوا لِلْخُبْــزِ بالجَمْـــزِ[4]
وَلَوْ اطاقُـوا القَفْــزَ ما فَاتَهُـــمْ ... وكَيْــفَ للجائِـــعِ بالقَفْـــزِ

فليس من همَّة ولا من هَمِّ الطبقة الفقيرة الثَّراءُ وتكديس الأموال، ولا التمتع بزينة الدنيا، وإنما شغله الشاغل توفير الرغفان لأبنائه، فإذا فاز لهم بها مع شيء من اللحم كان ذلك أقصى ما يتمناه. وأولاده كأولاد رفيقه أبي فرعون الساسي في المسغبة والهزال والحرمان، فقد قرب عيد الفطر، وليس عندهم شيء من تمر أو أرز، وزاد من شقائهم أن الدهر أهلك العنز التي كانوا يشربون لبنها، فحرموا منه وجاعوا جوعاً أهزل أجسامهم، حتى لو رأوا الرغفان على رأس جبل لما تمكنوا من العدو إليها عدواً سريعاً، لأن الجوع استهلك طاقتهم، وأذهب قوتهم.

ولم يكونوا هم أحسن حالاً من أبنائهم، بل كانوا شراً منهم جوعاً ونحولاً، على نحو ما يصور ذلك أبو الشمقمق في قوله[5]:

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ١٢٧.

(٢) الترز : الجوع والموت.

(٣) أودى بها : أهلكها.

(٤) الجمز : العدو ليس بالسريع.

(٥) العقد الفريد ٣ : ٣٦، وشرح المقامات ١ : ٦٤، وشعراء عباسيون ص : ١٤٦.

أنــــا في حالٍ تعالَــــى ... اللهُ رَبِّــــــي أيّ حَالِ
لَيْسَ لي شيءٌ إذا قيــــلَ ... لمـــــن ذا؟ قُلْتُ: ذا لي
وَلَقَــدْ أفْــلَسْتُ حَتَّــى ... حَلَّ أكْلــي لِعِيالــــي
وَلَقَــــدْ أهْــزِلْتُ حَتّى ... مَحَتِ الشَّمْسُ خَيالـــــي
مَنْ رَأى شيئــاً مُحــالاً ... فأنـــا عَيْـــنُ المُحـــالِ
لَوْ أرَى في النّـــاسِ حُراً ... لَمْ أكُـــنْ في ذَا المِثـــالِ

فهو في وضع تعيس سيِّىء يصعب عليه أن يصفه وصفاً يظهره على حقيقته، فقد أملق وافتقر وخلا بيته من كل شيء، وجاع حتى غدا كالخيال، بل حتى لم يعد له ظل على وجه الأرض، مما أثار الغضب والسخط في نفسه، ومما جعله ينقم على الناس والمجتمع الذي لم يبق فيه شهم أو كريم يعطف عليه، أو يسعى ليُخَفِّف عنه بعض ما هو فيه من الشقاء والضياع.

ولعل انقطاع ضرورات المعيشة عنهم، وخاصة الخبز الذي يشبعون به جوعهم، ويحفظون به الحياة في أجسامهم هو ما جعل بعضهم يفرد شعره لوصف الرغفان، واشتهر منهم في ذلك أبو المُخَفَّف عَاذِرُ بنُ شاكر[1]، ومن وصفه لها قوله[2]:

جَانَبْـــتُ وَصْلَ الغانِيــــاتِ ... وَصَحَوْتُ عَنْ وَصْلِ اللّواتـــي
نَعِـتَتْ بِهِـنَّ عُيُـــونُ مَنْ ... وَاصَلْتَـــهُ حَتَّـــى المَمَــــات
فَدَعِ الطُّلُـــولَ لِجَاهِــــلٍ ... يَبْكـــي الدِّيــارَ الخَاليــــات
وَدَعِ المَـــــديحَ لأمْرَدٍ ... وَلَخـــادِمٍ وَلِغَانِيــــاتِ
وَآمــدَحْ رَغيفــاً زانَـــهُ ... خَرْفٌ يَجِــلُّ عَنِ الصِّفــاتِ
يَدَعُ الحَلِيــــمَ مُدَلَّهــــاً ... حَيْــرانَ يَغْلَـطُ في الصَّلاة
مَنْـــعُ الرَّغيــــفِ سَفَاهَــــةٌ ... بَذْلُ الرَّغيــفِ مِنَ الهِبـــاتِ

(١) كتاب الورقة ص: ١٢٢.
(٢) المصدر السابق ص: ١٢٣.

فهو لا يفكر في الجواري والقيان اللائي يتردد عليهن طلاب اللهو والمتعة من الموسرين والمجان، ولا يذرف الدموع في الديار المقفرة، ولا يشتغل بالغلمان ولا الحسان، ولا يجعل لشيء من ذلك موضعاً من شعره، وإنما يمدح الرغيف الذي حرم منه في حياته، والذي يهيم به وجداً وصبابة.

ومما وقفوا طويلاً عنده، وتحدثوا كثيراً عنه إقفار بيوتهم، وتعطل أدوات المأكل والمشرب فيها، ومن ذلك قول أبي فِرْعون السَّاسي[1] يصور كيف أنه لم يكن يوصد باب بيته خوفاً من أن يسطو أحد عليه، بل شفقة بنفسه، حتى لا يبصر من يمر به ما يعيش فيه من الشقاء والبؤس[2] :

لَيْسَ إغلاقــي لِبَابــــي أنَّ لِي ... فِيــهِ ما أُخْشَى عَليــهِ السَّرَقَــا
إنَّمـــا أُغْلِقُـــه كَي لا يَرَى ... سُوءَ حَالي مَنْ يَجُوبُ الطُّرُقَا
مَنْــزِلٌ أوطَنَــه الفَقْــرُ فَلَــوْ ... دَخَــلَ السَّارِقُ فيـــه سُرِقَا
لَا تَرانـــي كاذِباً في وَصْفِـــهِ ... لَوْ تَرَاهُ قُلْتَ لي قَدْ صَدَقـــا

ومن ذلك أيضاً قوله يصف ملازمة الفقر له، حتى أفناه وأبلاه وذهب بلحمه، فلم يبق فيه إلّا العظام البالية التي عَشَّش العنكبوت بها وسكن فيها، وحتى عَطَّل تنُّورَه، ولم يعد يشعله، لأنه ليس عنده شيء من القمح الذي يطحنه ويخبزه فيه[3] :

أنا أَبُو فرعونَ فَاعْـرِف كُنْيَتي ... حَلَّ أَبُو عَمْـرَةَ في حُجْرَتـي[4]
وَحَـلَّ نَسْـجُ العَنْكَبُوتِ بِرُمَّتـي ... أَعْشَبَ تَنُّوري وَقَلَّتْ حِنْطَتي[5]

---

(١) أنظر ترجمته وشعره في كتاب الورقة ص : ٥٦، وطبقات ابن المعتز ص : ٣٧٦، والقول في البغال ص : ٨٧، والامتاع والمؤانسة ٢ : ٥٣، ٣ : ٣٤، ٧٠.

(٢) طبقات ابن المعتز ص : ٣٧٧، والمحاسن والمساوىء ص : ٢٧٨.

(٣) الإمتاع والمؤانسة ٢ : ٥٣.

(٤) أبو عمرة : اسم للجوع.

(٥) الرمة : العظام البالية.

ولأبي الشمقمق في ذلك ما ليس لغيره من رفاقه من الصعاليك الفقراء، فهو حيناً يتحدث عن هروب السنانير والجراذين والذباب من بيته، لأنها لم تجد فيه شيئاً تأكله على شاكلة ما يتضح ذلك في قوله[1] :

وَلَقَدْ قُلْتُ حينَ أَحْجَرني البَرْ ... دُ كما تُحْجِرُ الكِلابُ ثُعالَهْ[2]
في بُيَيْتٍ من الغَضارَةِ قَفْـرٍ ... لَيْسَ فيه إلَّا النَّوى والنُّخالَهْ
عَطَّلَتْهُ الجُرْذانُ مِنْ قِلَّةِ الخَيْـ ... ـرِ وَطارَ الذُّبابُ نَحْوَ زُبالَهْ[3]
هَارباتٍ مِنْهُ إلى كُلِّ خِصْبٍ ... حِينَ لَمْ يَرْتَجِينَ منه بُلالَه[4]
وأقامَ السِّنَّورُ فيه بِشَرٍّ ... يَسْأَلُ اللهَ ذا العُلى والجَلالَهْ
أَنْ يَرى فَأْرَةً فَلَمْ يَرَ شيئاً ... ناكِساً رَأْسَه لِطُولِ المَلالَهْ
قُلْتُ لَمّا رَأَيْتُه ناكِسَ الرَّأْ ... سِ كَئيباً يَمْشي عَلَى شَرِّ حالَهْ
وَيْكَ صَبْراً فأَنْتَ رَأْسُ السَّنانيـ ... ـرِ وعَلَّلْتُه بِحُسْنِ مَقالَهْ[5]
قَالَ : لا صَبْرَ لِي وكَيْفَ مُقامي ... في قِفارٍ كَمِثْلِ بِيدِ تَبالَهْ[6]

وهو حيناً ثانياً يصف كيف أنه يعيش في العراء لا يختفي عن الناس ولا يحتجب عنهم، لأن بيته هو الأرض الممتدة، وسقفه هو السماء المرفوعة الواسعة، لا باب له، ولا سرير فيه، لأنه لم يعثر على ألواح من الخشب يمكن أن يصنع منها باباً أو سريراً يملأ به نواحيه[7] :

---

(١) الحيوان ٥ : ٢٦٦.

(٢) حجره : منعه. ثعالة : علم للثعلب.

(٣) زبالة : موضع بالكوفة.

(٤) البلالة : النَّدوة.

(٥) السنانير : جمع سنور وهو الهر.

(٦) البيد : جمع بيداء، وهي الفلاة : تبالة : بلد من أرض تهامة في طريق اليمن.

(٧) العقد الفريد ٣ : ٣٦.

بَرَزْتُ مِنَ المَنَازِلِ والقِبَابِ   فَلَمْ يَعْسُرْ عَلَى أَحَدٍ حِجابي
فَمَنْزِلِيَ الفَضَاءُ وَسَقْفُ بَيْتِي   سَماءُ اللهِ أَوْ قِطَعُ السَّحابِ
فَأَنْتَ إذا أَرَدْتَ دَخَلْتَ بَيْتِي   عَلَيَّ مُسَلِّماً مِنْ غَيْرِ بَابِ
لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ مِصْراعَ بَابٍ   يكونُ مِنَ السَّحابِ إلى التُّرابِ
وَلَا انْشَقَّ الثَّرى عَنْ عُودِ تَخْتٍ   أُؤَمِّلُ أَنْ أَشُدَّ بِهِ ثِيابي

ومما عرضوا له وهم يُعَدِّدون مظاهر بؤسهم افتقارهم إلى الخيول والإبل التي يرتحل عليها غيرهم في يسر وراحة، في حين كان الصعاليك الفقراء يمتطون أرجلهم حتى تعبت وحفيت، وحتى ذابت نعالهم وتقطعت، فإذا هم يزدادون سخطاً على سخط، وحقداً على حقد، وإذا هم يحتجون على الله ويسألونه المساواة بين الناس بحيث لا ينعم على طبقة، ويُضيِّق على أخرى، بل بحيث يُشْقي المنحرفين الفاسدين، ولعل أحداً منهم لم يلهج بهذه المعاني مثل الحمدوني، إذ يقول ثائراً غاضباً محتجاً[1] :

تَسَامى الرِّجالُ عَلَى خَيْلِهِمْ   وَرِجْلِيَ مِنْ بَيْنِهِمْ حَافِيَهْ
فإِنْ كُنْتَ حَامِلَنا رَبَّنا   وإِلَّا فَأَرْجِلْ بَنِي الزَّانِيَهْ

أما أبو الشمقمق فكان ممّا يتمنّاه في حياته أن يخلصه الله من المشقة والعناء والإرهاق لطول ما مشى وسار على قدميه، وأن يهبه بعيراً يحمله[2] :

أَتُراني أَرَى مِنَ الدَّهْرِ يَوْماً   لِيَ فِيهِ مَطِيَّةٌ غَيْرُ رِجْلي
كُلَّما كنتُ في جَمِيعٍ فَقَالوا :   قَرِّبُوا للرَّحِيلِ قَرَّبْتُ نَعْلي
حَيْثُما كنتُ لَا أُخَلِّفُ رَحْلاً   مَنْ رآني فَقَدْ رآني وَرَحْلي

وتحدثوا أيضاً عن سوء حظهم، وما لازمهم من الشؤم، وكيف أنهم كانوا أينما توجهوا عادوا خائبين، وحيثما طلبوا الرزق لم يجدوه، فإذا هم ضائعون

(١) المحاسن والمساوىء ص : ٢٧٨.

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦. والمحاسن والمساوىء ص : ٢٧٨.

ضجرون يسألون عن وسيلة يحتالون بها للتغلب على ما يلاحقهم من النحس، وفي ذلك يقول أبو فرعون السّاسي[1] :

رأيْتُ في النَّــــومِ بَخْتــــي   في زِيِّ شَيْـــــخٍ أرَتِّ[2]
أعْمَــــى أصَمَّ ضَئِيـــــلا   أبـــا بنيــــنَ وبِـــنْتِ
فكيــــــفَ لي بِدَواءٍ   يُليـــنُ لي بَطْـــنَ بَخْتـــي

ويأبى على أبي الشمقمق ما اعتاده من العُدْم أن يظفر بشيء أينما ذهب، وكيفما طلب، حتى ليتخيل أنه لو خاض البحر لجف، ولو أمسك بالدّر لتحول إلى زجاج، ولو هَمَّ بشرب الماء العذب لصار مُرّاً لا يشْرب، وفي ذلك يقول[3] :

لو ركبتُ البحارَ صارتْ فِجاجاً   لا تُرى في مُتونهــا أمْواجَـــاً
ولو أنّـي وضَعتُ ياقوتةً حَمْـ   ـراءَ في راحتي لصارتْ زُجاجَاً
وَلَوْ أنّـي وَرَدْتُ عَذْبــاً فُراتــاً   عادَ لا شكَّ فيـه مِلْحاً أجَاجَا

ووقفوا مراراً ليصفوا قلة عناية الناس بهم، وتحاميهم لهم، مع ما كانوا يشاهدون من شقائهم وبؤسهم، فهم يشكون ويصرخون ولا من سامع، وهم يتوسلون إلى الرزق ويحتالون له ولا من شيء يفوزون به. ومما آذاهم أن أهلهم وأقاربهم ابتعدوا عنهم وسئموهم وأهملوهم، فلم يبق لهم إلا أن يرفعوا أيديهم الى السماء يسألون الله الرحمة والفرج، ومن ذلك قول أبي فرعون السّاسي[4] :

بُنَيَّتـــي هَدَّنـــي الزَّمــــانُ   وَمَلَّنـــي الأهْلـــونَ والإخـــوانُ
رَدَّ فلانٌ وَجفَــــــا فُلانُ   واللهُ رَبُّ النَّـــاسِ مُسْتَعــــانُ

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ٢٧٧.

(٢) الأرت : من بلسانه عجمة.

(٣) العقد الفريد ٦ : ٢١٦.

(٤) كتاب الورقة ص : ٥٧.

ويَرُدُّ أبو الشمقمق قعود الناس عن مساعدته، وما انحدروا إليه من اللؤم والخسة إلى تفكك الروابط الاجتماعية بين الناس. فقد هلك مواليه الذين كانوا يهبون لإنقاذه من كل شر يصيبه، ولم يعد للعرب الذين يتصفون بالنخوة والمروءة أي شأن في المجتمع، حتى من بقي منهم ونزل بالمدن تخلّى عن شيمه الرفيعة من الشهامة والأريحيّة. وغدا يكثر من الكلام ولا يغني في الملمّات والشّدائد شيئاً، وذلك قوله[1] :

ذَهَبَ المَــــــوالِ فَلا مَوا ... لِ وَقَــدْ فُجِعْنــا بالعَــرَبْ
إلّا بَقايــــا أُصبِحُــــوا ... بالــمِصْرِ مِنْ قِشْرِ الــقَصَبْ
بالقَـــوْلِ بَذُّوا حَاتِمــــاً ... والعَقْــلُ رِيــحٌ في القِــرَبْ

ومع أنهم كانوا يتجرعون حياتهم غصصاً مريرة، وكان غيرهم يستمتع بملذات الحياة، فإنهم لم يكونوا ناقمين على الناس، ولا حاقدين ولا حاسدين لهم، وإنما كانوا ينتقدون المفاسد التي سببت هذا التناقض الذي يعيشون فيه ويُكابدون آثاره، والذي قلب القواعد الصحيحة التي يعطى بها كُلٌّ حقّه، ويُوفَّر عليه حَظّه، كما كانوا ينادون بقسمة الحظوظ بين الناس بالعدل والأنصاف. فمن كان أهلاً للشقاء استحقه، ومن كان أهلاً للرخاء استوجبه، أما أن يشقى الكريم، وينعم اللئيم ويبتئس صاحب العقل والفضل، ويسعد الغبيُّ الجاهل فهذا ممّا لم يحتملوه ولا أطاقوه. ولعلّ أحداً منهم لم يعبّر عن ذلك بوضوح مثل أبي الينبعي، فقد لخصه في بيتين سهلين شعبيين لم يصدر فيهما عن نفسه ومشكلته، بل صدر فيهما عن جمهور المعذبين ومشاكلهم، فطار له البيت الثاني منهما في الآفاق ولهج به الناس، فكان ينشد في كل مجلس ومحفل وسوق وطريق، وهما[2] :

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ١٢٩.

(٢) طبقات ابن المعتز ص: ١٣١، المحاسن والمساوئ ص: ٢٧٨ .

صَبْراً عَلَى الذُّلِّ والصَّغَار   يا خَالِقَ اللَّيْلِ والنَّهارِ
كَمْ مِنْ حِمارٍ عَلَى جَوادٍ   وَمِنْ جَوادٍ بِلَا حِمارِ

ومن تتمة الحديث عن صحة تقديرهم للأمور، وارتفاعهم عن كل حقد وحسد، ودعوتهم الى وضع الناس في منازلهم الطبيعية التي يستأهلها كل فرد منهم أنهم لم يكونوا يطالبون بالمستحيل، ولا كانوا ينشدون ما لا يستحقون، فقد كانوا ينادون بالمساواة مع غيرهم، وبحصولهم على ما حرموا من وسائل الحياة التي تضمن لهم المعيشة الكريمة، يظهر ذلك من هذه القصيدة التي سجل فيها أبو الشمقمق أمانيه في الحياة، وهي تجري على هذا النمط[1] :

مُنَايَ مِنْ دُنْيايَ هاتي التي   تَسْلَخُ بالرِّزْقِ عَلَى غَيْري[2]
الجَرْدَقُ الحاضِرُ مَعْ بِضعةٍ   مِنْ مَاعِزٍ رَخْصٍ ومِنْ طَيْرِ[3]
وَجَرَّةٌ تُهْدِرُ مَلآنَةٌ   تَحْكي قِراةَ القَسِّ في الدَّيْرِ[4]
وَجُبَّةٌ دَكْنَاءُ فَضْفَاضَةٌ   وَطَيْلَسانٌ حَسَنُ النَّيْرِ[5]
وَبَغْلَةٌ شَهْباءُ طَيَّارَةٌ   تَطْوي لِيَ البُلْدانَ في السَّيْرِ
وبَدْرَةٌ مَمْلُوءَةٌ عَسْجَداً   ما بالذي أَذْكُرُ مِنْ ضَيْرِ[6]
وَمَنْزِلٌ في خَيْرِ مَا جِيرَةٍ   قَدْ عُرِفُوا بالخَيْرِ والمَيْرِ[7]
وصَاحِبٌ يَلْزَمُني دَهْرَهُ   مِثْلَ لُزومِ الكِيسِ للسَّيْرِ
مُساعِدٌ يُعْجِبُني فَهْمُهُ   مُرْتَفِعُ الهِمَّةِ في الخَيْرِ

---

(١) القول في البغال ص : ١٢٨.
(٢) تسلخ عليهم بالرزق : تغرقهم فيه.
(٣) الجردق : الرغيف. الرخص : الطري.
(٤) القرو : القدح من الخشب.
(٥) فضفاضة : واسعة سابلة. الطيلسان : نوع من الأكسية فارسي معرب. النير : القصب والخيوط إذ اجتمعت.
(٦) البدرة : الكيس، الضير : الشر.
(٧) المير : اجتلاب الطعام.

أرأيت إلى مطالبه ؟ إنه لا يبتغي شيئاً محالاً، بل يبتغي الممكن بل ضرورات الحياة، فهو يطلب رغفان الخبز، وعدداً من الماعز والطيور، وشيئاً من الخمر، وثوباً ثميناً جميلاً، وبغلة فتيَّة قويَّة يستعين بها على السفر، وبعض المال الذي يسعفه في الشدة، وبيتاً له جيران كرماء طيِّبون، ورفيقاً وفيّاً حليماً شهماً.

ومثلها مقطوعة أخرى لِمُحارِفٍ فقير، يصف فيها آماله في الحياة، ويود لو كان له مال، وأرض، وبغال، وجمال، ومنزل، وخادم، ثم لا يلبث أن يعترف بأن كل ما طلب إنما هو أضغاث أحلام لا يمكن أن يفوز بشيء منه، إذ يقول[1] :

أتراني أقولُ يوماً من الدَّهـ	ـرِ لبعضِ التّجارِ أفْسَدْتُ مَالي
أوْ تَراني أقولُ مِنْ أيْنَ جاءتْ	لِدَوابي بِذَا الشَّعيرِ جمالي
أوْ تَراني أقولُ يا قَهْرَماني	سَلْ غُلامي مُوَفَّقاً عَنْ بِغالي[2]
أوْ تَراني أمُرُّ فَوْقَ رِوَاقٍ	لِيَ عَالٍ في مَجْلِسٍ لِيَ عَالي
أسْرِجوا لي فَيُسْرِجُون دَوابي	فأقولُ انزِعُوا السُّرُوجَ بَدالي
هَذَياناً كمَا تَرَى وَفضُولاً	دَائِمَ النُّوكِ مِنْ عَظيمِ المُحالِ[3]

وبيِّن أنهم نَفَذوا وهم يعدِّدون مظاهر فقرهم إلى المناداة بالعدل الاجتماعي، والتساوي بين الطبقات في الحقوق، ولم يرتضوا أن تستمتع القلة وتنعم، وتشقى الكثرة وتَبْتَئِس.

---

(١) القول في البغال ص : ٤١.

(٢) القهرمان : الوكيل والأمين والخازن.

(٣) النوك : الحمق.

— ٢ —

وسائلهم إلى كسب أرزاقهم

لم يصطنع الصعاليك الفقراء وسيلة واحدةً إلى تحصيل أقواتهم والتغلب على ما كان يتنابهم من الأزمات في حياتهم، وإنما اصطنعوا وسائل كثيرة، وجربوا طرقاً مختلفة، تتفاوت بين السمو بالنفس والارتفاع عن ذل السؤال، والتلطّف في عرض مشكلاتهم، وشرح سوء أحوالهم، وبين الحدة والتعريض والهجاء الفاحش، والانحدار الى السؤال والمراجعة في الطلب، وفاقاً لما كان يصيبهم من الشدائد التي كان لهم طاقة ببعضها، والتي كانوا يعجزون عن تحمل غيرها.

ومن تلك الوسائل التي مالوا إليها واعتمدوا في حياتهم عليها رفع رقاع الشكوى إلى كبار رجال الدولة من القضاة والوزراء والأشراف يشرحون لهم فيها ما هم فيه من الشر والشقاء، ويطالبونهم بمساعدتهم والإحسان إليهم. ومن ذلك ما يروى من أن أبا فرعون السّاسي افتقر واشتدت به الحال، فكتب إلى بعض القضاة بالبصرة يتظلّم إليه ويسأله العون، ومما كتب إليه قوله[1] :

يا قاضيَ البصرةِ ذَا الوَجْهِ الأَغَرْ　　إليكَ أُشكو ما مَضَى وما غَبَرْ
عَفَا زَمــانٌ وشِتــاءٌ قَدْ حَضَرْ　　إنَّ أبا عَمْرةَ في بيتي انْحَجَرْ[2]
يَضْرِبُ بالـدُّفِّ وإنْ شاءَ زَمَـرْ　　فاطْرُدْهُ عَنِّـي بدقيــقٍ يُنْتَظَـرْ

فأجابه إلى ما سأل.

وقريب من ذلك هذه الأبيات التي تدل على أن أبا الشمقمق أُملق بحيث لم يبق في بيته شيء من الخبز والماء، فبكى أولاده وشكوا، فقصد بعض

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٣ : ٣٤.

(٢) أبو عمرة : اسم للجوع.

الهاشميين يستعديه على الفقر ويسأله بعض المال الذي يصلح به من شأن أولاده وينجيهم من الجوع والهلاك، إذ يقول[1] :

يا أيُّها الملكُ الذي جَمَعَ الجلالَةَ والوَقَارَهْ
إنّي رأيتُكَ في المنام وَعَدْتَني منكَ الزِّيارَهْ
فَغَدوتُ نحوكَ قاصداً وعليكَ تَصْديقُ العِبارَهْ
إنَّ العِيالَ تَركتُهُمْ بالمِصْرِ خُبْزُهُمُ العُصَارَهْ[2]
وشَرابُهُمْ بَوْلُ الحِمارِ مِزَاجُهُ بَوْلُ الحِمارَهْ
ضَجُّوا فقلت تَصَبَّرُوا فالنُّجْحُ يُقْرَنُ بالصَّبَارَهْ
حتَّى أزورَ الهاشِمِيَّ أخا الغَضارَةِ والنَّضَارَهْ

وبذلك كانوا يظفرون ببعض الدنانير القليلة التي كانوا يستعينون بها في حياتهم.

وعمدوا إلى المديح، غير أنهم لم يمدحوا الخلفاء ولا أكثر الوزراء، لأنهم لم يفسحوا لهم في مجالسهم، ولا ارتضوا مديحهم، وإنما كانوا ينفرون منهم ويوصدون الأبواب من دونهم. وليس من شك في أنهم إنما ازوروا عنهم وحالوا بينهم وبين الوصول إليهم لأنهم كانوا يعرفون أنهم من الشعراء المغمورين الذين لا يجيدون المديح، ولا يحسنون الانتصار لهم والانقطاع للدفاع عنهم. ولذلك كان معظم ممدوحيهم من الطبقة المتوسطة من العمال والكتاب وبعض أبناء البيت الهاشمي الذين لم يكن لهم شأن كبير.

ومن عجيب الأمر أن ممدوحيهم من هذه الطبقة لم يتقبلوهم ولا واسوهم، فقد كان قصارى الممدوح منهم أن يلتفت إليهم مرة، ويصلهم بصلة يسيرة، ثم ينفر منهم ويتحاماهم في كل مرة، بل إن بعضهم كانوا يريدونهم أن

---

(١) طبقات ابن المعتز ص : ١٢٧.
(٢) العصارة : الثُفلُ الذي يبقى من الشيء المعصور.

يمدحوهم دون أجر أو ثواب، وفي ذلك يقول أبو الشمقمق، وقد نزل بغداد وساءت حاله بها، مصوراً حياة الناس فيها، وكيف أنهم كانوا يتكلفون ويتصنعون ويسترون حقائقهم بما يلبسون من فاخر الثياب التي لا تتناسب مع لابسها، بل تخفي أجساماً لا همة لها، ونفوساً لا خير فيها، بل إن بعض أبناء البيت الهاشمي كانوا يودون لو مدحهم ولم يدفعوا له شيئاً[1] :

ليس فيهـا مروءةٌ لشريـفٍ غيرُ هذا القنـاعِ بالطيلسانِ
وَبَقِينا في عُصْبَـةٍ منْ قريشٍ يَشْتَهُـونَ المديـحَ بالمَجّـانِ

ومع ذلك فقد كان بعض الممدوحين من العرب وغير العرب يحتفلون بهم ويحسنون إليهم ويشاركونهم الإحساس ببؤسهم، ويبذلون لهم شيئاً من المال ليتغلبوا به على شقائهم، غير أن أكثرهم كانوا يجفونهم ولا يهتمون بهم، مع ما تجشموا إليهم من أهوال السفر، ومكاره الرحلة، ومع ما كانوا يؤملون فيهم من خير، وفي ارتحال أبي الشمقمق إلى بلاد فارس، وتطوافه بأعمالها، وزيارته لأكثر عُمّالها وسوء استقبالهم له وازورارهم عنه، حتّى اضطر الى هجائهم والتشهير بهم خير شاهد على ما كانوا يلاقون من الصد والرد والجفاء[2].

ومن أولئك الممدوحين الذين أكرموا بعضهم حين قصدهم وساهموا في توفير المعاش والرزق له يزيد بن مزيد الشيباني، فقد ارتحل إليه أبو الشمقمق راجلاً وهو والٍ على اليمن، فوصل إليه في حال رثة، فمدحه وشرح له سوء حاله بقوله[3] :

---

(١) تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦.

(٢) الكامل للمبرد ٣ : ٧، ٧، ٨. وكتاب الورقة ص : ٦٧، وكتاب الورقة ص : ٦٧ والوزراء والكتاب ص : ٢٢٤، ٢٣٢.

(٣) تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦.

رَحَلَ المطيّ إليكَ طُلّابُ النَّدى وَرَحَلْتُ نحوكَ ناقَةً نَعْلِيَّةً[1]
إذْ لَمْ تَكُنْ لِيَ يا يزيدُ مَطِيَّةٌ فَجَعَلْتُها لِيَ في السِّفارِ مَطِيَّةً
تَحْدُو أمامَ اليَعْمُلاتِ وتَغْتَلي في السَّيْرِ تَتْرُكُ خَلْفَها المَهْرِيَّةْ[2]
تَنْتابُ أكبَر وائلٍ في بَيْتِها حَسَباً وَقُبَّةُ مَجْدِها مَبْنِيَّةْ
أعْني يزيداً سَيْفَ آل محمَّدٍ فَرّاجَ كُلِّ شديدةٍ مخشِيَّةْ
يَوْمَاهُ يَوْمٌ للمواهب والجَدَا خضِلٌ وَيَوْمُ دَمٍ وخَطْفِ مَنِيَّةْ[3]
ولقد أتَيْتكَ واثقاً بِكَ عالماً أنْ لستَ تَسْمَعُ مِدْحَةً بِنَسِيَّةْ

فأمر له بألف دينار.

فالمِدْحة عنده وعند أمثاله من الصعاليك الفقراء لا تشتمل على المعاني التقليدية للمديح، ولا تُخصّص للثناء على الممدوح، بل يُفرد أكثرها للشكوى والاستعطاف، ولعل ذلك هو ما دفع ممدوحيهم إلى الصدود عنهم وجفائهم في أكثر الأحيان، فهم لم يعتادوا هذا النوع من المديح، وإنما اعتادوا أن يُنوّه الشعراء بأعمالهم ويشيدوا بأصولهم وصفاتهم الحميدة، أما أبو الشمقمق وغيره من الصعاليك الفقراء، فتحوّلوا بالمدحة إلى رقعة للشكاية والتظلّم والاستجداء، فلم يجد فيها الممدوحون شيئاً من المديح لهم حتّى يثيبوهم عليه. وربما كانت مدحة أبي فرعون السّاسي للحسن بن سهل وزير المأمون أوضح مثال تظهر فيه هذه النزعة، اذ استهلها بأبيات وصف فيها الأطلال، ثم مدحه ببيتين، انتقل منهما إلى شرح مظاهر فقره وتعاسة أبنائه في أحد عشر بيتاً تجري على هذا النحو[4] :

---

(١) الندى : المعروف.

(٢) اليعملات : جمع يعملة وهي الناقة الفتية السريعة. المهرية : نوع من النوق الكرام.

(٣) الجدا : العطاء.

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ٣٧٨.

إليكَ أشكو صِبْيَةً وأمَّهُمْ
لا يَشْبَعُونَ وأبوهُمْ مِثْلُهُمْ

قد أكَلوا اللَّحْمَ ولم يُشبِعْهُمُ
وشَرِبُوا الماء فَطالَ شُرْبُهُمْ

وامْتَذَقُوا المَذْقَ فما أغْنَاهُمُ
والمَضْغُ إنْ نالُوهُ فَهُوَ عُرْسُهُمْ[1]

لا يَعْرفونَ الخُبْزَ إلَّا باسْمِهِ
والتَّمْرُ هَيْهاتَ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ

وَما رأَوْا فاكِهَةً في سُوقِها
وما رَأَوْها وهيَ تَنْحُو نَحْوَهُمْ

زُعْرُ الرُّؤوسِ قَرِعَتْ هَامَاتُهُمْ
مِنَ البَلا وٱسْتَكَّ منهم سَمْعُهُمْ[2]

كأنَّهُمْ جَنابُ أرْضٍ مُجْدِبٌ
مَحْلٌ فلَوْ يُعْطَوْنَ أوجَى سَهْمُهُمْ[3]

بَلْ لَوْ تَراهُمْ لعلِمتَ أنَّهُمْ
قَوْمٌ قليلٌ رِيُّهُمْ وشِبْعُهُمْ

وَجَحْشُهُمْ أجْرَبُ مَنْقُورُ القَرَى
وَمِثْلُ أعْوادِ الشُّكاعَى كَلْبُهُمْ[4]

كأنَّهُمْ كانوا ـ وإنْ وَلَّيْتَهُمْ
طُرّاً ـ مَوالِيَّ وكنتُ عَبْدَهُمْ

مُجْتَهِداً بالنُّصْحِ لا آلوهُمُ
أدْعُو لهم يا رَبِّ سَلِّمْ أمَّهُمْ[5]

وما نظنّ أن هذا الشعر يحتاج إلى شرح أو توضيح، فهو يفصح عن معناه بلفظه السهل وأسلوبه البسيط، ويصل إلى القلب دون حجاب، كما أنه يبين سوء ما ابتلي به أبو فرعون السّاسي في حياته من البؤس والكرب، ويكشف عن أحوال الطبقة الفقيرة المعدمة في المجتمع العبّاسي، مجتمع البذخ والترف واللهو التي كان ينهمك فيها ويتهالك عليها الخلفاء والوزراء وحواشيهم ومن كان يلوذ بهم، ويضنون على المعذبين بأقل القليل، ولا يلقون إليهم بالاً، ويردونهم إذا سألوهم، ويُوبِّخُونهم إذا راجعوهم.

---

(١) المذق : اللبن الممزوج بالماء. المضغ : ما يمضغ ويُلاك.

(٢) الزعر في شعر الرأس : قلة ورقة وتفرق.

(٣) الجناب : الناحية، أوجى سهمهم : أخطأ ولم يصب الهدف.

(٤) القرى : الظهر. الشكاعى : نبت دقيق العيدان.

(٥) لا آلوهم : لا أقصر ولا أبطىء عنهم.

ومن المحقق أن ما كانوا يلقونه من رَدٍّ قبيح وجفاء ونفور من الممدوحين الذين قصدوهم لطول ما اشتكوا إليهم، ولكثرة ما سألوهم، هو الذي جعلهم يتحوّلون عن مديحهم إلى هجائهم، يريدون بذلك أن يغيظوهم ويعرضوا بهم، ويشفوا غليلهم منهم، ويجبروهم على أن يبذلوا لهم عن كره ما منعوه عنهم حين استعطفوهم وتوسلوا إليهم بالكلمة الطيبة والقول العفيف.

والهجاء هو الوسيلة الثالثة التي احترفوها احترافاً لكسب أقواتهم، وهو السّلاح الذي أحسنوا استخدامه، وقطّعوا به ممدوحيهم اللئام تقطيعاً، حتى لقد كان أكثرهم هَجّاءً خبيث اللسان، فاحش القول، فأبو فرعون السّاسي كان سليط اللسان، حاد المنطق يُمزّق مَهْجوّه كُلَّ ممزق، ومن مُرِّ هجائه لقومه وقد خذلوه وتكبروا عليه قوله[1] :

إنَّ عَدِيّـــا نَفَشَتْ لِحَاهـــا ... وَظَلَـمتْ في حَقِّهــا أَخَاهــا

لَا يَرَني اللهُ كما أَراها

وقوله يهجو عمر بن حبيب القاضي ويسخر منه[2] :

كفاني اللهُ شَرَّكَ يا ابنَ عمِّي ... فأمَّـا الخَيْرَ منكَ فقد كَفانــي

وكان أبو الينبعي العباس بن طرخان مثله بل أعنف منه وأشد، إذ كان سريع الفُحْش، جَيِّد البديهة، خبيث اللسان[3]، سريعاً إلى أعراض الناس يهجوهم ويقطعهم[4]، كما كان لا يتورع عن قذفهم في شرفهم بألذع السباب، وأقبح الألفاظ، وأسهل الأساليب، لكي يسبق إليها العامة والصبيان ويتناقلوها ويشيعوها في الآفاق، ولكي تكون عاراً يُلَطِّخ وجه مَهْجُوِّه أبد

---

(١) كتاب الورقة ص : ٥٨.

(٢) كتاب الورقة ص : ٥٦.

(٣) طبقات ابن المعتز ص : ١٣٠.

(٤) طبقات ابن المعتز ص : ١٣١.

الدهر، ولم يكن يخشى صولة أي إنسان مهما كانت منزلته، ومهما بلغت سطوته، حتى لقد تَعَرَّض ليحيى بن خالد البرمكيّ في موكبه، وبه وجوه الناس، وولداه: الفضل وجعفر عن يمينه وشماله، وأخذ يُشَهِّر به بقوله[1]:

صَحِبْتُ البَرامِكَ عَشْراً وِلا فخبزي شِراءٌ وبَيْتي كِرَا[2]

فما هي إلا أن عاد إلى بيته فإذا الفضل وجعفر يرسل كل منهما إليه بَدْرة، ويجري له من مطبخه ما يكفيه من الزاد.

ومر بنا أنه هجا الفضل بن مروان أحد الكتاب هجاء فاحشاً، استعدى عليه بسببه الخليفة الواثق، وحبسه وظل في غياهب السجنِ حتى مات[3].

وكان أبو الشمقمق أهجاهم جميعاً، وكان هجاؤه على أنواع، فهو حيناً كان يحقر مَهْجُوّه أشدّ التحقير، لأنه منعه بعض المال، ويفتن في تحقيره وتصوير شحه وحرصه على جمع المال حرصاً لا يُراعي معه كرامة ولا شرفاً، ولا يبقى له على عِزَّةٍ ولا مروءة، ومثال ذلك قوله يهجو من يسمى معبداً[4]:

يا مَنْ يُؤَمِّلُ مَعْبَداً مِنْ بَيْنِ أَهْلِ زَمَانِهِ
لَوْ أَنَّ في استِكَ دِرهماً لاستَلَّهُ بِلِسَانِهِ

وقوله يهجو سعيد بن سلم الباهلي أحد القادة هجاء مزج فيه تحقيره له بالسخرية منه، مع تبيانه بخله وتقتيره على سائله حتى لو ملك بحار الأرض وامتدت وزادت، ومع استخدامه فيه الأمثال الشعبية، ليكون أسهل على السمع، وأيسر في الحفظ، وأوسع انتشاراً بين الناس[5]:

---

(١) طبقات ابن المعتز ص: ١٣٢، والوزراء والكتاب ص: ٢٠١.

(٢) ولا: متتابعة.

(٣) طبقات ابن المعتز ص: ١٣٢، وذيل زهر الآداب ص: ٢٥٨.

(٤) معجم الشعراء ص: ٣١٩.

(٥) الكامل للمبرد ٣: ٨.

هيهاتَ تَضْرِبُ في حديدٍ باردٍ إنْ كنتَ تَطْمعُ في نوالِ سَعيدِ
واللهِ لو مَلَكَ البحــارَ بأسْرِها وأتاهُ سَلْمٌ في زمــانِ مُدودِ[1]
يَبْغِيهِ مِنْهَــا شَرْبَــةً لِطَهُــورِهِ لأَبَى وقَــالَ: تَيَمَّمَنْ بِصَعِيــدِ[2]

وهو حيناً ثانياً كان يرميه بالمجون والفسوق، كأنما كان يريد أن يهلكه ويقضي عليه انتقاماً لنفسه منه، ومثال ذلك قوله يهجو جميل بن محفوظ الأزدي عامل يحيى بن خالد البرمكيّ، مذكراً له بما كان عليه من الضَّعَة قبل أن يتعلق بأسباب السلطان ويغنى، وملطِّخاً له بتهمة الزندقة[3]:

وهــذا جَميــلٌ عَلَــى بَغْلِــهِ وقَدْ كانَ يَعْدُو عَلَى رِجْلِــهِ
وقــد زَعَمُــوا أنَّــهُ كافِــرٌ وأنَّ التَّزَنْــدُقَ مِنْ شَكْلِــهِ
كأنِّــي بِهِ قَدْ دَعَــاهُ الإمــامُ وآذَنَ رَبُّكَ في قَتْلِــــــهِ

وهو حيناً ثالثاً كان يسف ويفحش، ويأتي بالسخيف من المعاني، ويختار البذيء من القول[4]. وليس من شك في أن شح من قصدهم عليه، وإغلاظهم له، وتجافيهم عنه، وردَّهم له رَدّاً قبيحاً هي الأسباب التي دفعته إلى هذا النوع من الهجاء دفعاً، فكان يعمد إليه تحقيراً لهم، وتفريغاً لِسُخطِهِ عليهم. ومما يمكن أن يستشهد به من هجائه البذيء قوله لمنصور بن زياد كاتب الرشيد المشهور بالضيق والبخل، وقد قصده فأُعطاه عشرة دراهم، وبلغ الخبر ابنه محمداً فأرسل إليه مائة درهم، وأمره بالرجوع إليه ليبرَّه فأخذها ولم يَعُدْ إليه[5]:

---

(١) المدود: جمع مد وهو كثرة الماء وزيادته.

(٢) الصعيد: التراب الطيب.

(٣) الحيوان ٤: ٤٥٤.

(٤) الأغاني ٣: ٣٦، ٢١: ٨٣.

(٥) الوزراء والكتاب ص: ٢٢٤.

لَوْلَا ابـنُ مَنْصُورٍ وأَفضالُـه سَلَحْتُ عَلَى لِحْيَة مَنْصُورِ

فتأذّى ابن منصور، وندم على ما صنع والده، وأخذ يردّد : إنما خفتنا «هذا» وما أفلتنا منه.

أما الحمدوني فيبدو أنه سلك طريق رفاقه في الهجاء الخبيث الفاحش في أول عهده بالهجاء، ومن ذلك قوله يهجو الجاحظ[1] :

لو يُمْسَخُ الخنزير مَسْخاً ثانياً لَرَأَيْتَهُ في دون قُبْحِ الجاحظِ
رَجُلٌ يَنُوبُ عَنْ الجَحيمِ بِوَجْهِهِ وَهْوَ العَدوُّ لِكُلِّ عَيْنٍ لَاحِظِ

ولكنه سرعان ما انتهج لنفسه مذهباً يقوم على الفكاهة المضحكة والسخرية اللاذعة. وإنما أغراه به ومَدَّ له فيه أن أحمد بن حرب المهلبي كان من المنعمين عليه المحسنين إليه، فكان يمدحه جزاءً له وكفاءً لما كان يصله به، حتى إذا وهبه طيلساناً قديماً لم يعجبه تحول من مديحه إلى هجائه ووصف طيلسانه البالي في مقطوعات استحسنها الناس وحملوها عنه وتناقلها الرواة، فزادها حتى بلغت خمسين مقطوعة، طارت كل مطار، وسارت كل مسار، كما يقول المبرد[2].

ومن طريف قوله الساخر اللاذع هذه الأبيات التي يصور فيها بِلَى الطيلسان وشقاءه به[3] :

رأَيْنا طَيْلسانَك يا ابنَ حَرْبٍ يَزيدُ المرءَ ذا الضّعةِ اتّضَاعَا
إذا الرَّفَّاءُ أصْلَحَ مِنْهُ بَعْضاً تَداعى بَعْضُه الباقي انْصِداعَا
يُسَلِّمُ صَاحِبي فَيَقُدُّ شِبْراً بِهِ وأَقُدُّ في رَدِّي ذِرَاعَا

---

(١) شرح المقامات ٢ : ٩٥.
(٢) زهر الآداب ص : ٥٥٠.
(٣) وفيات الأعيان ٦ : ٩٣.

أُجيلُ الطَّرْفَ في طَرَفَيْهِ طُولاً وعَـرْضاً ما أَرى إلَّا رِقاعـا
فَلَسْتُ أَشُكُّ أَنْ قَدْ كانَ دَهْراً لِنُـوحٍ في سَفِينَتِـهِ شِرَاعـا

وهذه الأبيات التي يصف فيها ما كلفه إصلاح الطيلسان من التكاليف الباهظة مِمَّا زاده بؤساً على بؤس، والتي يصف فيها أيضاً احتقار الناس له وقد لبسه ممّا زاده ضَعةً على ضعة[1] :

يا ابنَ حَرْبٍ أَطَلْتَ فَقْري بِرَفْوي طيلساناً قَدْ كنتُ عَنْـهُ غَنِيَّـا
فهو في الرَّفْوِ آلُ فِرْعَوْنَ في العَرْ ضِ عَلَى النَّارِ غُدْوَةً وعَشِيَّـا
زُرْتُ فيـهِ مَعـاشِراً فازْدَرَونـي فَتَغَنَّـيْتُ إذْ رَأَوْنـي زَرِيَّـا
جِئْتُ في زِيِّ سائلٍ كَيْ أَرَاكُم وعَلَى البـابِ قَدْ وَقَفْتُ مَلِيَّا[2]

ويطول بنا القول إذا أردنا أن نثبت معظم المقطوعات التي نظمها في طيلسان ابن حرب، وحسبنا الشاهدان اللّذان مَثّلنا بهما فإن فيهما ما يوضح كيف أنه مال إلى السخرية من مهجوّه سخريةً كان يَخزُهُ بها وخزاً، ويطعن أمثاله من البخلاء طعناً[3].

وتصادف أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ وهبه شاة ليذبحها في عيد الأضحى، وكانت هزيلة ناحلة، فانبرى له يهجوه لا برميه بالبخل بل بوصف شاته الضامرة التي لا شحم فيها ولا لحم، والتي لا تنفع ولا تغني من جوع مُتَّخذاً من وصفها وسيلة الى التعريض به والسخرية منه، وناظماً كل قطعة من القطع التي صورها فيها في وزن من الأوزان الخفيفة الرشيقة التي كان يختارها الشعراء الغزليون، والتي كان يسرع إليها المغنون، وخاتماً لها ببيت

---

(١) زهر الآداب ص : ٥٥٣.
(٢) ملياً : طويلاً.
(٣) أنظر سائر مقطوعاته في طيلسان ابن حرب في طبقات ابن المعتز ص : ٣٧١، وثمار القلوب ص : ٤٨١، وزهر الآداب ص : ٥٥٠، ووفيات الأعيان ٦ : ٩٢، وشرح المقامات ١ : ٩٥.

من الأبيات الغزلية ليدل على أصل الصوت ولحنه حتى تكون القطعة ألصق بالأذهان، وأقرب إلى الأسماع، وحتى يعمد الناس الى ترديدها والتغني بها، كما يظهر في قوله[1] :

أَيَا سَعِيدُ لَنَا فِي شَاتِكَ العِبَرُ　　جاءتْ وَمَا إنْ لَهَا بَوْلٌ وَلَا بَعَرُ
وكيفَ تُبْعِرُ شاةٌ عندَكُمْ مَكَثَتْ　　طعامُها الأيبضانِ الشَّمْسُ والقَمَرُ
لَوْ أنَّها أَبْصَرَتْ في نَوْمِهَا عَلَفاً　　غَنَّتْ لَهُ ودموعُ العَيْنِ تَنْحَدِرُ
يَا مَانِعِي لَذَّةَ الدُّنيا بأَجْمَعِهَا　　إنِّي لَيَقْنِعُني مِنْ وَجْهِكَ النَّظَرُ

وأخف من ذلك وأسير، وأنكي وأمر قوله[2] :

شاةُ سَعِيدٍ في أمرِها عِبَرُ　　لمَّا أَتَتْنَا قَدْ مَسَّهَا الضَّرَرُ
وهيَ تُغَنِّي مِنْ سُوءِ حَالَتِهَا　　حَسْبِي بِمَا لَقِيتُ يا عُمَرُ
مَرَّت بِقُطْفٍ خُضْرٍ يُنَشِّرُهَا　　قَوْمٌ فَظَنَّتْ بأنَّها خُضَرُ
فأقْبَلَتْ نَحْوَهَا لتأكُلَها　　حتَّى إذا ما تَبَيَّنَ الخَبَرُ
وأَبْدَلَتْهَا الظنونُ مِنْ طَمَعٍ　　يَأْساً تَغَنَّت والدَّمْعُ مُنْحَدِرُ
كانُوا بعيداً وكنتُ آمَلُهُمْ　　حتَّى إذا ما تَقَرَّبُوا هَجَرُوا

وآخر الوسائل التي كانوا يلتجئون إليها إذا أعوزتهم الحيلة، واشتدّ بهم الفقر، ولم يُغْنِهِمُ المدحُ ولا الشكوى ولا الهجاء أنهم كانوا يطوفون في الأسواق يسألون الناس بها أن يحسنوا إليهم ويتصدقوا عليهم، وكان أبو المخفف عاذر بن شاكر أذكرهم في ذلك، إذ كان ببغداد أيام المأمون يركب حماراً له، وتركب جارية له حماراً آخر، وتحتها خُرْجٌ، ويدور بغداد ولا يمر بذي سلطان ولا تاجر ولا صانع إلّا أخذ منه شيئاً يسيراً مثل قطعة أو رغيف

---

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٤، وزهر الآداب ص : ٥٤٩.
(٢) زهر الآداب ص : ٥٤٩.

أو كسرة[1]، وكان له دفتر فيه أسماء كل من له عليه وظيفة وعلى ظهره مكتوب[2] :

دفتــــرٌ فِيــــهِ أسامــــي ... كُلِّ قَرْمٍ وهُمــــامِ
وكريــمٌ يُظْهِــرُ الــبِشْرَ لنــا ... عنــــد السَّلامِ
يُوجِبُ الــــنِّصْفَ عليــــه ... خَاتِــــمٌ في كُلِّ عامِ
أو فلــوساً كُلَّ شهــر ... لثلاثيــنَ تَمــامِ

وكان أبو فرعون السَّاسي التميمي العدوّي يضطر إلى الكدية بالبصرة، بل يقال إنه لم يكن يصبر عنها[3]. أما أبو الينبعي فله شعر يعلّل فيه مسألته للناس، وكيف أنه إنما كان يعمد إليها في وقت الشدّة والضيق وتعذر الرزق، بل لأن الله ابتلاه وأشقاه، ولم يكفه ولا أغناه، إذ يقول[4] :

ألا يا ملكَ النّــاس ... وخيــرَ النّــاس للنّــاس
أتنهانــي عن النّــاس ... فأغنينــي عنِ النّــاس
وإلّا فَدَعِ النّــاس ... ودَعنــي أسألِ النّــاس
فَهَــلْ سُمِّــعْتَ في النّــاس ... بِشِعْــر كُلُّــهُ النّــاس

وقد سار له هذا الشعر في الدنيا، ورواه كل أحد لخفته على الأفواه.

ويجب أن نفرق بين هؤلاء الفقراء البائسين المعدمين الذين كانوا يستجدون ويسألون الرغفان وكسر الخبز والدراهم المعدودة التي كانوا يستعينون بها على أعباء الحياة، وبين المُكْدِين المحترفين الذين هانت نفوسهم عليهم، ولم يكونوا فقراء ولا محتاجين، بل تعاطوا الكدية لأنهم وجدوا فيها

---

(١) كتاب الورقة ص : ١٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص : ١٢٤.
(٣) كتاب الورقة ص : ٥٦، وطبقات ابن المعتز ص : ٣٧٦.
(٤) طبقات ابن المعتز ص : ١٣١.

الوسيلة السهلة الى جمع المال. والذين احتالوا على الناس بالحيل المختلفة، حتى خدعوهم بها وفازوا ببرهم ونوالهم، مما فصله البيهقي تفصيلاً، إذ وقف عند أصنافهم وأعمالهم وحيلهم، وبيّن دناءتهم وخستهم[1].

ـ ٣ ـ
أبو الشمقمق أشقى الصعاليك الفقراء

لعل أبا الشمقمق هو أتعس صعلوك فقير عاش في العصر العباسي الأول، فقد قُدِّر له أن تكون حياته إخفاقاً متصلاً، مع محاولاته المستمرة للتخفيف من بؤسه وإقلاله، إذ عاش في موطنه ومرباه فقيراً مُعْدماً، وظلّ الفقر والعُدْم يلازمانه على امتداد حياته، وفي كل البلاد التي ارتحل إليها وتنقل فيها سعياً وراء لقمة العيش التي يُقيم بها نفسه ويُقيم بها عياله، ويُجَنِّبهم ذُلَّ الفقر، وهوان القِلّة، كما أنه أهم صعلوك فقير لهذا العصر، لا لأن القدماء احتفظوا لنا بغير قليل من أخباره وأشعاره التي يصور فيها ما كان يحيا فيه من عسر وشدة، وما كان يحيا فيه أمثاله من الفقراء من الجوع والحرمان والضياع، بل أيضاً لأن الطبقات الدنيا البائسة كانت تحفظ شعره، وتحرص عليه، وتتغنّى فيه، لأنه كان يجسد أوجاعها ومظالمها ويشخّص أمانيها وآمالها[2].

واسمه مروان بن محمد، وكنيته أبو محمد، ولقبه أبو الشَّمَقْمَق، ومعناه الطويل، وبه اشتهر[3]. وهو من أصل خراساني من بخارية عبيد الله بن زياد،

---

(١) المحاسن والمساوىء ص : ٥٨٢.

(٢) الحيوان : ١ : ٦١.

(٣) أنظر في ترجمته وأشعاره طبقات ابن المعتز ص : ١٢٦، وكتاب الورقة ص : ٦٧، والقول في البغال ص : ١٢٨، والحيوان ٥ : ٢٦٤، وما بعدها، ٦ : ٢٤٧، والكامل للمبرد ٣ : ٦ وما بعدها، والعقد الفريد ٣ : ٣٥، ٦ : ٢١٥، والأغاني ٣ : ٣٨، ٤٦، ٩ : ٣٨، ١٥ : ٤٠، ١٨ =

ومن موالي مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وتاريخ ميلاده مجهول، ولكن يغلب على الظن أنه ولد بأخرة من العصر الأموي في البصرة، ونشأ في سِكَّة البُخَارِيَّة[1] نشأة فقيرة بائسة، إذ يقول ابن عبد ربه: إنه كان يلزم بيته في أطمارٍ مَسْحُوقة، وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج فنظر من فُرَجِه، فإن أعجبه الواقف فتح له، وإلَّا سكت عنه[2].

ولسنا نعلم على وجه التحقيق سبب فقره وتصعلكه، وربما كان لنشأته في الفترة القلقة المضطربة التي انتقلت فيها مقاليد الحكم من بني أمية إلى بني العباس، وما صاحبها من الشدّة والبطش، لتعقب العباسيين بقايا الأمويين، وتنكيلهم بهم، وتقتيلهم لهم، ومطاردتهم لأنصارهم ومواليهم، وتضييقهم عليهم أثر في فقره وابتئاسه في صدر حياته، وربما كان لقبح خلقته أثر في تحامي الناس له، وإعراض الممدوحين عنه، إذ كان خفيف العثنون[3]، عظيم الأنف، أهْرَتَ الشدقين[4] مُنْكَرَ المنظر[5]. وممّا زاد من جفائهم له وقلة عطفهم عليه أنه كان حاد المزاج، ضَيِّق الصدر، قليل الحيلة، خبيث اللسان، بذيء المنطق، فعاش لذلك مَجْفُوّاً منبوذاً، صعلوكاً متبرِّماً محروماً من البر والعطف والمواساة إلَّا ممّا كان يجود به عليه بعض العمال والقادة ورفاقه من الشعراء من الصِّلات النزرة اليسيرة التي لم تكن تغنيه إلا لفترة قصيرة يعود بعدها إلى سابق عهده من الإملاق والحاجة.

= ١١، ٢١ : ٨٣، ومعجم الشعراء ص : ٣١٩، والوزراء والكتاب ص : ٢٢٤،، ٢٣٢، وثمار القلوب ص : ٤٣٥، وتاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦، ووفيات الأعيان ٥ : ٣٧٨، ٣٨٣، والعصر العباسي الأول ص : ٤٣٦، وشعراء عباسيون ص : ١٢١.

(١) معجم البلدان ١ : ٥٢٢.

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٥.

(٣) العثنون من اللحية : ما نبت على الذقن وتحته سفلاً.

(٤) الأهرت : الواسع.

(٥) العقد الفريد : ٣ : ٣٥.

وقد قَضى الشطر الأول من حياته بالبصرة لا يتصل بعامل، ولا يظفر بنوال، فكان يتردّد على بشار بن برد، ويسأله بعض الدراهم، فكان يعطيه في العام الطويل بعد العام مائتي درهم اتقاءً لشره، وخوفاً من فاحش هجائه[1]

وكان اذا قصده وضن عليه بما طلب منه يتحول الى هجائه هجاءً مُقذِعاً فيسارع إلى دفع الجزية التي فرضها عليه ابتغاءَ إرضائه وإسكاته. ومن طريف ما يروى عنه أنه علم أن عقبة بن سلم الأزدي وصل بشاراً بعشرة آلاف درهم، فوافاه وسأله أن يواسيه بشيء منها، فامتنع فقال له يا أبا معاذ لقد مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون[2]:

هَلِّلِينَــــــــهْ هَلِّلِينَـــــــهْ طَعْـــــنَ قِثَّـــــاةٍ لِتِينَــــهْ
إنَّ بشارَ بنَ بُرْدٍ تَيْسٌ أعمَــــى في سَفِينَــــهْ

وما هي إلا أن سمع بشار البيتين حتى أعطاه مائتي درهم وقال له لا تكن راوية للصبيان.

على أن تَصَدُّق بشار عليه بمثل هذا المبلغ الضئيل لم يكفه ولا سد حاجته فرأى أن يتجه إلى بغداد: حاضرة الخلافة، ودار الخلفاء والوزراء، ومصدر المكافآت الضخمة، لعلّه تتيسر أحواله بها، ويحظى ببعض الصلات الطائلة فيها. ويذهب الخطيب البغدادي إلى أنه قدم بغداد في خلافة الرشيد[3]، والأرجح والأصح أنه وصل إليها قبل ذلك، لأن أبا الفرج الأصفهاني يذكر أنه هجا مروان بن أبي حفصة لأنه رفض أن يعطيه شيئاً من صلة أجراها عليه الخليفة المهدي[4]، ممّا ينبيء بأنه كان في بغداد قبل عهد

---

(١) الأغاني ٣ : ٤٦.

(٢) تاريخ بغداد ٣ : ١٤٦، والأغاني ٣ : ٤٦.

(٣) تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦.

(٤) الأغاني ٩ : ٣٨.

الرشيد. غير أن إقامته بها لم تجلب له خيراً، إذ عاش فيها بعيداً عن الخلفاء والوزراء، مع محاولاته المتصلة للتقرب من البرامكة والحظوة عندهم، ومع شكواه لبعض العمال سوء حاله، فلم يجد مفراً من هجاء الفضل بن يحيى البرمكي[1] ومنصور بن زياد أحد كتاب الرشيد[2]، وسعيد بن سَلْمٍ الباهلي. ومن ساخر هجائه للأخير قوله[3] :

فارتحَلْنا إلى سعيدِ بن سَلْمٍ — فإذا ضَيْفُه الجوع يَرْمي
وإذا خُبْزُهُ عليه سَيَكْفِيهم الـ — ـلـهُ ما بَدَا ضَوْءُ نَجْمِ
وإذا خَاتمُ النبيِّ سُليمـا — نَ بن داودَ قَدْ عَلاهُ بِخَتْمِ

ولم يلبث أن ضاق ذرعاً ببغداد وحياتها وأهلها فتولّاها وتولّاهم بنقد شديد[4]، إذ تعذرت عليه أسباب الرزق بها، ولم يحقق شيئاً ممّا طمع في تحقيقه والفوز به فيها، فلا هو حسنت حاله، ولا الدنيا أقبلت عليه، بل ظلّ مبعداً مكروهاً يحيا حياة الغربة والضيق والكفاف على ما كان يقدمه إليه بعض كبار رجال الدولة والمسؤولين من أمثال يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد المظفر، ومالك بن علي الخزاعي، ومحمد بن منصور بن زياد المعروف بفتى العسكر، وعلى بعض ما كان يبتزه ابتزازاً من الشعراء المشهورين الذين حظوا بالجوائز الكبيرة من الخلفاء والوزراء، كأبي العتاهية وأبي نواس[5]، وسلم الخاسر الذي قصده وقد وهبه الرشيد عشرة آلاف درهم واستماحه فَمَنَعَهُ فهجاه هجاء لاذعاً منه قوله[6] :

---

(١) معجم الشعراء ص : ٣١٩.
(٢) الوزراء والكتاب ص : ٢٢٤.
(٣) الكامل للمبرد ٣: ٦.
(٤) تاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦.
(٥) معجم الشعراء ص : ٣١٩.
(٦) الأغاني ٢١ : ٨٣.

وإذا سَرَّكَ يَوْمــــــــــــــاً يا خليلـــي نَيْــلُ خَيْــرِهْ
قُمْ فَمُــرْ راهِــبَكَ الأَصْلَـــعْ يَفْـــرَغْ بابَ دَيْـــرِهْ

فأعطاه خمسة دنانير، ورجاه ألا يعود إلى الطعن عليه واتهامه بالمجون والفسوق.

ولمّا ساءت حاله ببغداد واشتدّت به الضيقة، فقد رأى أن يسعى في طلب المعاش في بلد غيرها، فيرتحل إلى بلاد فارس بأخرة من عمره، ويزور بعض عمالها، فيلقاه بعضهم بالخير، ويزودُ عنه غيرهم، وممّن أحسن إليه منهم أبو دهمان الغلّابي والي نيسابور[1] فنوه به، أما سائرهم كجميل بن مخفوظ والي أرّجان[2]، وعمر بن مساور الكاتب[3]، وداود بن بكر[4] اللّذان كانا يتقلّدان بعض أعمال الأهواز فأعرضوا عنه فهجاهم هجاءً مرّاً.

ويظهر أنه عاد من بلاد فارس إلى بغداد، وقضى الشطر الأخير من عمره مُقِلّاً مُبْتَئِساً. وقد أهمل القدماء تاريخ وفاته على نحو ما أهملوا تاريخ ميلاده، والراجح أنه لم يدرك أوائل القرن الثالث الهجري، بل توفّي في أواخر القرن الثاني.

ويمثل شعره حياته الفقيرة وما ظلّ يعانيه من مرارة الحرمان والعُدم والإملاق، وما كان يجيش بصدره من الألم والتمرّد والحقد لإقلاله المتصل، وتعاسته التي لم تنقطع، ويمثل أيضاً سعيه المستمر للحصول على الدراهم القليلة التي يقيم بها حياته وحياة أبنائه، وما لازمه من إخفاق جعله ضَيِّقَ الصدر عصبيَّ الطبع، كما حمله على الاستكثار من الهجاء والإفحاش فيه، مبتغياً إذلال مهجوه وإهانته وإضحاك الناس منه.

---

(١) كتاب الورقة ص : ٦٧.
(٢) المصدر السابق ص : ٦٧.
(٣) الوزراء والكتاب ص : ٢٣٢.
(٤) الكامل للمبرد ٣ : ٥١.

وقد ضربنا أمثلة كثيرة من شعره في تضاعيف هذا الفصل استشهدنا بها على تصوير سوء حاله وسوء حال الطبقة الفقيرة، وعلى الوسائل التي اصطنعوها لكسب أرزاقهم. ونضيف إليها أمثلة أخرى تتصل ببؤسه وسلوكه للتخفيف منه وما صاغه في مديح بعض من كان يتوسم فيهم الخير والعطف، إلى هجاء من منعوه وصدُّوه صَدًّا سيئاً. ومنها قوله الذي يصف فيه خلو بيته من المتاع، وكيف أنه كان لا يمتلك من الأردية إلا القليل البالي، كالملاءة التي يغطي بها سريره والحصيرة التي كان يفرش بها أرض غرفته[1] :

لَوْ قَدْ رأَيْتَ سريري كنتَ تَرْحَمُني ... اللهُ يَعلَمُ ما لي فيـهِ تَلْبِيسُ[2]
واللهُ يعلَمُ ما لي فِيهِ شابِكَـةٌ ... إلَّا الحصيرةُ والأَطمارُ والدِّيسُ[3]

ومنها قوله الذي يصور فيه إقفار بيته من الطعام، بل من الأوعية التي يخزن فيها الطحين، ويحفظ بها الماء، فإذا الذباب يطير عنه، والفأر يهرب منه، والهر لا يطيق البقاء فيه لطول ما قاسى من ألم الجوع[4] :

ولَقَـدْ قلتُ حينَ أَقْفَـرَ بَيْتـي ... مِنْ جرابِ الدَّقيقِ والفَخَّـارَهْ
فأرى الفـأرَ قَدْ تَجَنَّبْنَ بَيْتـي ... عائِـذاتٍ مِنْـهُ بدارِ الإمـارَهْ
وَدَعـا بالرَّحيـلِ ذِبَّـانُ بَيْتـي ... بيـن مَقْصُوصِهِ إلـى طَيَّـارَهْ
وأَقامَ السِّنَّوْرُ في البَيْتِ حَوْلاً ... ما يَرَى في جَوانِبِ البَيْتِ فارَهْ
يَنْفُضُ الرأْسَ مِنهُ مِنْ شِدَّةِ الجو ... عِ وعَيْشٍ فِيهِ أَذى ومَـرارَهْ
قلتُ لمَّـا رأَيْتُـهُ ناكِسَ الـرَّأْ ... سِ كَئِيباً في الجَوْفِ مِنْهُ حَرارَهْ
ويكَ صَبْراً فأنت من خَيْرِ سِنَوْ ... رٍ رَأَتْـهُ عَينـايَ قَط بِحَـارَهْ
قالَ لا صَبْرَ لي وكَيْفَ مُقامي ... وَسْطَ بَيْتٍ قَفْرٍ كَجَوْفِ الحِمارَهْ

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٣٦.

(٢) التلبيس : ما يكسى به السرير من الملاءة والحشية.

(٣) الشابكة : ما يضم بعضه الى بعض. الديس : هو ما يعرف في مصر باسم السمار.

(٤) الحيوان ٥ : ٢٦٤.

وهو إنما يصور بذلك الحوار الذي أداره بينه وبين الهر في بيته مسغبة أولاده وحرمانه، بل مسغبة الطبقات الدنيا في المجتمع العباسي، وما كانت تعاني من الشدّة والعسر في حياتها حتى إن بيوتها لم تكن تخلو من أسباب النعيم والتّرف، ولا من الأوعية التي تخزن فيها مؤونة الحياة، بل أيضاً من أنواع الحيوان والطير النافعة والضّارة مع وجوب كثرتها فيها لوضاعتها، ولكنّها حين افتقدت بها ما تقيم به أرماقها لم تتحمّل العيش فيها، ولم تعد تطيق البقاء بها.

وليس من شيء كان يتمتع به سواه من الأغنياء، وحرم هو ورفاقه من الفقراء منه إلا ألم به وذكره، ووصف حاجته وحاجتهم إليه، لأنه كان يرى أن من حقهم أن يمتلكوه وييَسِّروا حياتهم به، لا أن تمتلكه طبقة الأغنياء الصغيرة، وتحرم منه الطبقة المعدمة الكبيرة. وكأنما كان يدعو بلسان إخوانه من الفقراء إلى المساواة مع غيرهم من الأثرياء في كل شيء سواء كان من أسباب المعيشة، وضرورات الحياة كالمأكل والمسكن والملبس، أو من وسائل اللهو والمسرة كالخمر والجواري والقيان والصديق الظريف. وقد استشهدنا على ذلك قبل حين بقصيدته الرائية التي تحدّث فيها عن أمانيه في حياته[1]، ونضيف إليها قوله الذي يصور فيه حمده لله على ما ابتلاه به من البؤس حتى تعب وكلّ لكثرة ما سار على قدميه، في حين كان يشاهد غيره من النّاس يركبون الخيل والبغال ويتخذونها زينة، والذي يصف فيه أيضاً حاجته الماسة الى فرس كريم يريحه من مشقة السير، وما استقر في وعيه من أنه لن يفوز به طول عمره، فقنع لذلك بحمار لا يبتغي به زينة في حياته، بل راحة من المشي الذي أتعبه وأضناه[2] :

(١) القول في البغال ص : ١٢٨.

(٢) طبقات ابن المعتز : ١٢٨.

أَلحمـــــدُ للهِ شكـــــراً   أَمْشي وَيَــرْكَبُ غَيْــــري
قَدْ كنتُ آمَــــلُ طِرْفـــاً   فصرتُ أَرْضى بِعَيْـــــرِ

ومن شعره ما أودعه نقده الساخر لمن كانوا يتظاهرون بالتديُّن وهم بغاة طغاة غارقون في الإثم والفسق. ومر بنا أن النقد الاجتماعي من الموضوعات التي شغل بها غيره من الصعاليك الفقراء كأبي الينبعي والحمدوني، فقد نقدا الأوضاع الاجتماعية الفاسدة وما كانت تقوم عليه من التفاوت بين الطبقات تفاوتاً كبيراً لا يعتمد على أي أساس صحيح يُعطى معه كل إنسان حقه على قدر فضله في نفسه وعمله. ومن طريف نقد أبي الشمقمق ولاذعه وباقيه على الأيام قوله يُنَدِّدُ بمن يَتَستَّرون بالورع والتقوى، ليخدعوا الناس عن أنفسهم، ويصرفوهم عما يقترفون من الكبائر والمظالم[1] :

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أَصْلُهُ دَنِسٌ   فما حَجَجْتَ ولكنْ حَجَّتِ العِيرُ
لا يَقْبَــلُ اللهُ إِلَّا كلَّ طَيِّبَــةٍ   ما كلُّ منْ حجَّ بيتَ اللهِ مَبْرُورُ

فهذا نقد هو كالمثل السائر الذي لا يصلح لعصره، بل يصلح لكل عصر، لأنه يصور ظاهرة متكرِّرةً في كل دهر، وهي أن من الناس من يخيل لغيره أنه تقي نقيٌّ يؤدي كل فريضة من فرائض الدين في موعدها ولا يتأخر عنها، مهما تحمل في سبيلها من الضيق والإرهاق، وهو في الحقيقة ليس كذلك، وإنما هو منافق لا يعرف من الدين شيئاً، ولا يحرص على إقامة شعائره، ولا يتمثل بتعاليمه في حياته، ولا يأمر بمعروف، ولا يلين قلبه الفَظُّ الغليظ على الضعفاء والمحتاجين.

ومن شعره ما مدح به بعض القادة المشهورين، وكرام الرجال النابهين، الذين كانوا يواسونه ويبرونه مديحاً لم يطل فيه، ولا تمسك بالتقاليد الفنية

---

(١) معجم الشعراء ص : ٣١٩.

المرعية به، وإن مَدَّ فيه فقد كان يشغله عن المديح التقليدي بشكواه وعرض سوء حاله عرضاً كان يستغرق فيه حتى يأتي على أكثر المدحة فإذا هي رقعة من الشكوى والتظلم والاستغاثة والاستنجاد. على أن الأغلب الأعم في مدائحه أنها مقطوعات قصيرة من بيتين أو أبيات معدودات قد يشيد في بيت منها بجود ممدوحه وأريحيته، ثم ينتقل إلى الحديث عن مغالبته لنفسه التي تود لو وفدت عليه في كل يوم لتحظى بنواله، ومثال ذلك قوله يمدح عيسى ابن إدريس والد أبي دُلَف العجلي القائد المعروف لعهد الأمين والمأمون[1]:

وليسَ عَلَى بابِ آبنِ إدْريسَ حاجبٌ
وليسَ عَلَى بابِ آبنِ إدْريسَ منْ قُفْلِ
طَرِبْتُ إلـــى مَعْرُوفِــهِ فَطَلَبْتُـــهُ
كما طَرِبَتْ زَنْجُ الحِجازِ إلى الطَّبْلِ[2]

وكثيراً ما كان ينحو نحو الموازنة والتفضيل في المديح بين ممدوحيه، إذ ينوِّه بمن أغدق عليه من برّه ومعروفه، ويُعَرِّض بمن سأله ومنعه أو قتّر عليه، وكأنّما كان يغري الأول بالإحسان المتصل إليه، ويمدُّ للثاني الأسباب لكي لا يضن عليه إذا قصده مرة ثانية. ومثال ذلك قوله يذم سعيد بن سلم الباهلي، ويمدح مالك بن علي الخزاعي[3] :

قال لي النـاسُ. زُرْ سعيــدَ بن سَلْـمٍ
قلتُ للنـــــاسِ لا أزورُ سعيــــــدا
وأميــري فَتَــى خُزاعَـــةَ بالـــبَصْرَةِ
قَدْ عَمَّهـــا سماحـــاً وجُـــودا

---

(١) ثمار القلوب ص : ٤٣٥.

(٢) الزنج مخصّصون من بين الأمم بشدة الطرب وحب الملاهي والأغاني وإيثار الخلاعة والتصابي.

(٣) الكامل للمبرد ٣ : ٧.

ولنعـــمَ الفَتَـــى سعيـــدٌ ولكـــنْ
مالكٌ أكـــــرمُ البريَّـــــةِ عُودَا

وقوله يفضل يزيد بن مزيد الشيباني على يزيد بن حاتم المهلبي(١) :

لشَتَّانَ ما بينَ اليَزيدَيْـن في النَّـدَى
إذا عُدَّ في النّاسِ المكـارمُ والمجْـدُ
يزيـدُ بَنـي شيبـانَ أكـرَمُ مِنْهُمـا
وإنْ غَضِبَتْ قَيْسُ بنُ عيـلانَ والأزْدُ

لا يشكِّلُ المديح موضوعاً أساسياً في شعره، كما أنه لم يفتن فيه، ولا حاول التجديد ولا التقليد في صوره ومعانيه، وممّا لا شك فيه أن فقره الذي ملأ عليه حياته، واستبدّ بنفسه ومشاعره وتفكيره، واستقبال الممدوحين له استقبالاً سيئاً لإكثاره من الشكوى والاستعطاف، ونفسيته التي لم تكن مهيأة للتملُّق وتنميق الكلام لهول ما كان يحس من المفارقات الصارخة بين حياته البائسة وحياة غيره من الأغنياء المترفين قد حالت جميعاً بينه وبين التفرغ لهذا الفن والتدقيق له والتجويد فيه.

أما الهجاء فهو الفن الذي تخصّص فيه، وتأنّى في صياغته وصناعته، ووقع على أخبث معانيه وأشنعها، وأقبح صوره وأبشعها، وتفوق فيه لا على أمثاله من الشعراء الفقراء المغمورين، بل على شعراء عصره النابهين. ومن الطبيعي أنه إنّما استكثر منه، وأبدع فيه لأنّه اتخذه سلاحاً إلى طعن خصومه من الممدوحين الغلّاظ الأفظّاظ طعْناً مميتاً، وتمزيقهم تمزيقاً شديداً، كيداً لهم، وجرحاً لكرامتهم، وانتصافاً لنفسه منهم. وأسلقنا أنه سلك فيه مذاهب شتى، إذ منه ما عمد فيه إلى تحقير مهجوِّه تحقيراً عنيفاً كقوله يهجو جعفر بن أبي زهير(٢) :

---

(١) الأغاني ١٥ : ٤٠.

(٢) شعراء عباسيون ص : ١٣١.

شرابُكَ في السَّرابِ إذا عَطِشنا ... وخُبزُكَ عندَ مُنقَطَعِ التُّرابِ
رأيتُ الخبزَ عزَّ لديكَ حتّى ... حَسِبْتُ الخُبْزَ في جَوِّ السَّحابِ
وما رَوَّحْتَنا لتَذُبَّ عَنّا ... ولكن خفتَ مَرْزِئَةَ الذُّبابِ

ومنه ما اتهم فيه مهجوه بالكفر والزندقة ليهتف العلماء به، ويُنادوا بقتله، ومنه ما مال فيه نَحْوَ هتك الأعراض بألفاظ صريحة وأساليب فاحشة[1]. على أن المهم في فن الهجاء عنده ظاهرتان لم نتحدث عنهما حتى الآن: أولاهما أنه أكثر فيه من استخدام ألفاظ العامية والأمثلة الشعبية كقوله يهجو بشار بن برد وقد سأله الجزية التي فرضها عليه فمنعها ورفض أداءها:

سَبْعُ جَوْزاتٍ وتينَهْ ... فَتَحُوا بابَ المَدِينَهْ
إنَّ بشارَ بنَ بُرْدٍ ... تَيْسٌ أعْمَى في سَفِينَهْ

وقوله يهجو سعيد بن سَلْم الباهلي[2]:

هَيْهاتَ تَضْرِبُ في حديدٍ باردٍ ... إنْ كُنْتَ تَطْمَعُ في نَوالِ سَعِيدِ

ومن المؤكد أنه إنما كان يقصد من ذلك إلى ضمان شيوع هجائه وانتشاره بين الأوساط الشعبية، وجماعات الصبيان، حتى يحفظوه ويَرْوُوه ويُرَدِّدوه في المجالس والطرق، طلباً لإيذاء مهجوِّه أذى لا ينقطع، وإهانته إهانة بالغة جارحة. ولذلك كان أكبر الشعراء الهجائيين لعصره من أمثال بشار ابن برد يهابونه ويخافون شعبيّة هجائه، ويسارعون إلى الرضوخ له، وإعطائه ما سأل من الدراهم[3].

---

(١) كتاب الورقة ص: ٦٧، والأغاني ٣ : ٤٦، والحيوان ٢ : ٣٦٠.
(٢) الكامل للمبرد ٣ : ٨.
(٣) الأغاني ٣ : ٤٦، وتاريخ بغداد ١٣ : ١٤٦.

أما الظاهرة الثانية فهي اعتماده على الصورة القبيحة التي كان يرسمها لمهجُوّه ليوضح بها حرصه على المال، وشحه به، وليظهره بها في أسوأ مظهر، مهيئاً للناس الأسباب ليستخفوا به، ويضحكوا منه، ومثال ذلك قوله في أوفى بن منصور[1] :

ما كنتُ أَحْسَبُ أَنَّ الخُبْزَ فاكِهةٌ حتَّى نَزَلْتُ عَلَى أوفى بن منصُورِ
يَبْسُ اليَدَيْنِ فما يَسْطِيعُ بَسْطَهما كأنَّ كَفَّيْهِ شُدَّا بالمَسامِيرِ

وقوله في بخيل آخر[2] :

كَفَّاهُ قُفْلٌ ضَاعَ مِفْتاحُهُ قَدْ يَئِسَ الحَدَّادُ مِنْ فَتْحِهِ

ولعله اتضح أن الصعاليك الفقراء صوّروا جوعَهم وضياعَهم في المجتمع العبّاسي، وكيف أنهم كانوا محرومين من كل شيء، وكيف أنَّ غيرهم من طبقة الأغنياء ينعمون بكل طيّبات الأرض وزينة الدُّنيا، مما جعلهم ينادون بالعدل والمساواة بين مختلف الطبقات على أسس صالحة عادلة، وكيف أنهم مالوا إلى تحصيل أقواتهم بوسائل غير الوسائل التي احترفها الصعاليك الفقراء في المجتمعين الجاهلي والأموي، إذ عمدوا إلى الشكوى والاستعطاف، أو المديح والاستنجاز، أو الهجاء المقذع، أو الكُدْية حين أعوزتهم الحيلة إلى كسب الرزق، وكيف أن أبا الشمقمق كان مثالاً للصعلوك الفقير المحارف الذي تعذر عليه الرزق كيفما طلبه، وقلّ كسبه عن إقامته وإقامة أبنائه، فعاش لذلك يتغنّى بآلامه وآماله، ويصوّر أحاسيس الطبقات الفقيرة في مجتمعه تصويراً صادقاً دقيقاً جعلها تحتفل به، وتحافظ عليه.

---

(١) شعراء عباسيون ص : ١٣٦.

(٢) الحيوان : ١ : ٣٥٥.

الفصل الرابع

الصعاليك الفقراء اللصوص

— ١ —

حركة قوية منظمة

يشكل اللصوص في العصر العبّاسي الأول حركة قوية كان أفرادها وزعماؤها على درجة عالية من الوعي الاجتماعي، والثقافة الواسعة، والمعرفة الصحيحة بمفاسد الحكام وطغيانهم، واختلال الأوضاع الاقتصادية، وما كان يسيطر على التجار من الطمع والغش والتلاعب، وأكل أموال الناس، والامتناع عن دفع الزكاة، وما جَرّه ذلك عليهم وعلى أمثالهم من الفقراء المظلومين البائسين من العسر والإرهاق. وهي حركة كانت منظمة تنظيماً محكماً، فقد كان اللصوص موزعين على جماعات متعددة، كان لكل جماعة منها تخصّصه وعمله، وكان لهم على اختلاف جماعاتهم زيٌّ يتميّزون به من سائر الطبقات[1]. كما كان لهم زعماء أشداء أذكياء ينزلون منهم بمنزلة المدربين والمرشدين، وكان لهم أيضاً مبادىء رفيعة التزموا بها وحافظوا عليها، وأهداف إنسانية سامية سعوا جادين إلى تحقيقها، لكي يؤكدوا وجودهم، ويدفعوا الظلم عن أنفسهم، وينالوا حقوقهم، ويتساووا مع غيرهم.

ومما يدل على قوة حركتهم وانتشارها وظهورها أن القدماء لم يهملوها ولا تغاضوا عنها، وإنما شغلوا بها، ووضعوا الكتب الكثيرة فيها. ولعلّ أول

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ١١٤٠. ومحاضرات الأدباء ٢ : ٨١.

مَنْ أَلَّف كتاباً في « الخُرَّاب واللصوص »، هو لقيطُ بن بُكَيْر المحاربيّ المتوفى سنة تسعين ومائة[1]. وتلاه أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة إحدى عشرة ومائتين. إذ وضع كتاباً في « مَلَاصّ قريش »[2]، وكتاباً أوسع وأشمل أفرده « للصوص العرب »[3]. وصنّف أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين كتاباً في اللصوص، أو في حِيَل اللصوص[4]. ثم جمع أبو سعيد السكري المتوفى سنة خمس وسبعين ومائتين أشعار اللصوص وأخبارهم على تنوع أعصارهم، وتباين أمصارهم[5].

ومن عجيب الأمر أن كل هذه الكتب التي ألفها القدماء ورصدوا فيها حركة الصعاليك واللصوص، وأسباب ظهورهم، وأخبارهم، وأشعارهم وزعمائهم وغاياتهم لم تصل إلينا، إما لأنها لا تزال مطويّة لم تنشر، وإما لأنها فقدت وضاعت.

وممّا يغني بعض الغناء بل أكثره أن العلماء الذين خَلَفُوا مَن ذكرناهم ممن وضعوا الكتب السابقة في اللصوص وحركتهم قد احتفظوا بِنُقُولٍ كثيرةٍ منها، وخاصة أبا علي التنوخي المتوفى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، فقد أفرد في كتابه : « الفرج بعد الشدة » فصلاً طويلاً للصوص، نَقَلَ بعضه عن كتاب اللصوص للجاحظ، كما أثبت الراغب الأصفهاني المتوفى سنة اثنتين وخمسمائة نقولاً أخرى عن كتاب اللصوص للجاحظ في كتابه : « محاضرات الأدباء »، وهي نُقُول لها قيمتها وأهميتها، لا لأنها تختلف عن « النُّقُولِ » التي احتفظ بها التنوخي فحسب، بل أيضاً لأنها تشتمل على قليل

---

(1) معجم الأدباء ١٧ : ٣٧.

(2) الفهرست ص : ٥٣.

(3) المصدر نفسه ص : ٥٤.

(4) معجم الأدباء ١٦ : ١٠٧.

(5) خزانة الأدب ١ : ٢٩٩.

من الشعر. أما ابن الجوزي المتوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة فأخذ عن كتاب الجاحظ أخباراً تتفق بعض الاتفاق مع ما استمده التنوخي منه. وانفرد ياقوت الحموي المتوفى سنة ست وعشرين وستمائة بأخذه عن كتاب اللصوص لأبي سعيد السكري أخذا لا يُعَدُّ كثرةً، ضَمَّنهُ كتابه : « معجم البلدان ». وشركه عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ثلاث وتسعين وألف في نقله عن كتاب اللصوص لأبي سعيد السكري مادةً وفيرةً من الأخبار والأشعار أثبتها في كتابه : « خزانة الأدب ». وغلب على ياقوت الحموي أنه اختار من الأشعار ما كان يتصل بالشواهد التي احتج بها على تحديد الأمكنة وضبطها، أما عبد القادر البغدادي فدار أكثر ما نقله على الشواهد النحوية، وبذلك خلت نُقُولهما من شعر الصعاليك واللصوص العبّاسيين، لأن ياقوتاً لم يجد في أشعارهم شواهد فيها ذكر لأسماء المواضع، ولأن البغدادي وغيره من النحويين لا يحتجون بشعر المحدثين والمولدين على القواعد النحوية.

ومعنى ذلك أن الأخبار والأشعار التي احتفظ بها القدماء للصوص العبّاسيين، والتي تفيد فائدة كبيرة تجتمع في ثلاثة فصول : أولها في كتاب : « الفرج بعد الشدة » للتنوخي، وثانيها في كتاب : « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهاني، وثالثها في كتاب : « الأذكياء » لابن الجوزي. فهي عمدتنا في هذا الفصل، وهي التي تعطينا صورة صحيحة عنهم، لأنها منقولة عن كتاب اللصوص للجاحظ، الذي عاصر اللصوص العباسيين، وسجّل أخبارهم وأشعارهم كما سمعها.

وأهم ما يلاحظ على حركة اللصوص زيادة على قوتها وانتشارها وظهورها أنها كانت منظمة أدق التنظيم، وهو تنظيم كان يتخذ شكل العصابات التي كانت تنتشر في المدن، والتي كان يقوم أفراد كل عصابة منها بعمل بعينه، كما كان ينهض كل فرد منهم بدور محدد. وقد أحصى عثمان الخياط زعيم اللصوص العبّاسيين أصنافهم إحصاء ينبىء بتخصّصهم، وقدر كل منهم عند

رفاقه، وهو يَجْري على هذا النمط : « السارق في الحضر والسفر خمسة : المحتال، وصاحب ليل، وصاحب طريق، والنَّبَّاش، والخناق، فالمحتال اسم لمن لا يعمل إلّا بحيلة، ولا يقتل، فهو لا يعرف بالصبر والنجدة، واللصوص يُبَهْرجُونهم ولا يَسْتَصْحِبُونهم. وأما صاحب الليل فالنَّقَّاب والمتسلق والمكابر وأشباه ذلك، والنبَّاش معروف، وهو الذي يستخرج المال المدفون. وأما الخناق فما منهم أحد إلّا وهو صاحب بَعْجٍ ورَضْخ، والرضخ إنما يكون في الأسفار، ويصحب الرجل المنفرد من الرفقة ومعه حجران أملسان ململمان قَدْر مَلْءِ الكف، فإن قدر عليه ساجداً أو نائماً، وإلا فقائماً، فيعمد إلى صِماخِه[1] ولا يخطيء، وأكثرهم لا يرضي إلا بالقتل مخافة المطالبة، وتَعَيَّن ناس منهم شيخاً معه مال، وكان لا ينزل إلاّ بين قوم. فلما أعياهم أمره، وكادوا لا يبلغون المنزل، وخافوا الفوت وجدوا تشاغلاً من القوم، فألقى أحدهم الوَتَر في عنقه، وغطاه بثوبه وأذَّن في أُذنه، فأخذ المخنوق يَخُور، فاجتمع القوم فقالوا : ما لكم والرجل، خَلُّوا عنه، فقالوا : سَلُوا رَبَّكُم العافية، وتباعدوا عنه، فإنه إذا أفاق ورآكم استحيا. فلما رأوه قد بَرَدَ قالوا : دعوه قد نام، وفي النوم راحته. ولما تفرّق القوم أخذوا المال وتركوه. ومن الخناقين من يحمل الرجل إلى داره بحيلته، فإذا ألقى الوَتَرَ في عنقه ضربَ أصحابُهُ الطبلَ والصَّنْجَ وتصايحوا كما يفعل النساء في البيوت ليخفى صوته »[2].

وهذا نص له أهميته لأنه يظهرنا على أنواع اللصوص في المجتمع العبّاسي المتحضّر، وكيف كانوا يختلفون عن الصعاليك واللصوص الجاهليين والأمويين في المجتمع البدوي، كما يظهرنا على حيلهم التي كانوا يعمدون إليها إخفاء لأعمالهم ودفعاً للشبهة عنهم.

---

(١) الصماخ من الأذن : ثقبها أو الخرق الذي يفضي الى الرأس.

(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ٨١.

ومارس اللصوص العبّاسيون أعمالهم في كثير من الحيطة والحذر والمراقبة، ولذلك كثر أعوانهم ومساعدوهم الذين كانوا يرصدون لهم الأماكن التي يريدون السطو عليها، أو التجار الذين قرّروا سرقتهم، أو الأسواق التي كانوا يبيعون فيها ما سرقوا من الحلي والمتاع، والذين كان بعضهم يحرس رفاقه وهم ينفذون خططهم، ويتولى حمايتهم وتخليصهم من أيدي الناس إذا عرفوهم وأمسكوا بهم. وقد عَدَّد الجاحظ أعوانهم ومساعديهم، وبيَّن عمل كل منهم، والحيلة التي كان يحتال بها لأداء دوره على خير وجه، إذ يقول[1] : « عونة اللصوص : العَيْنُ والمُوْتي والشاغل والطرّاد. فالعين الذي يلزم الصيارف يتأمل كل مال محمول يأتي السفن، فيتعرف موضع الحرز، أو يأتي دار قوم يَتَطَلَّبُ أنه يتوضأ فيتعرف خزائنهم والموضع الذي يقصدون منه. والمُوْتي الذي يتولى البيع والابتياع لهم، ويجعل عند ذلك كأنه أمير قرية أو زعيم محلة. والشاغل هو الذي يشغل القوم عن اللص. والطرّادُ إذا ظفروا به يجيء اللص فيضربه ما لا يضربه السلطان، ويقول هذا والله صاحبي الذي ذهب بمالي، ويضربه ويحتال بذلك حتى يتشاغل عنه القوم، فإذا تشاغلوا عنه أفلته، وتأسف مع القوم »[2].

وبذلك ضمنوا لأعمالهم النجاح، لطول ما كانوا يتأنون ويدققون وهم يُفكِّرون ويُقَدِّرون. وسَنُلِمُّ بعدَ قليل بحيلهم التي تكشِفُ عن ذكائهم في التّخطيط والتّنفيذ، ومهارتهم في التّمويه والتّعمِيةِ على أمرهم.

وترجع هذه الدّقة في التّخطيط، والبراعة في التّنفيذ إلى أنهم كانوا يتدربون فيما يشبه الجمعيات المتخصّصة على التلصُّص ووسائله وحيله، وكيف ينبغي لهم أن يكونوا متيقظين حذرين، وكيف الطلب والهرب، وكيف يسرقون بالحيلة اللطيفة، ويهربون ويختفون ويتخلّصون من المآزق التي قد يقعون

(١) محاضرات الأدباء ٢: ٨١ .
(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ٨١.

فيها، وكيف يصبرون على هول السجن، وشدّة التعذيب حتى لا يعرف السلطان أمرهم، ولا يكتشف أسرارهم. ولذلك اتّصفوا بشدّة الاحتمال، وعدُّوها مظهراً من مظاهر العزم والمروءة والقيام بالفتوة »[1]، واشتهر من بينهم أبو مَعْنٍ الزنجي، حتى أذهل الناس، وحتى قال فيه النظام: « لو ادَّعى النُّبوَّة، وأن معجزته الصبر على الضرب بالسياط لأدخل عليهم به شبهة عظيمة »[2]. وكان زعماؤهم هم الذين يقومون على تدريبهم وتثقيفهم، ومن أذكرهم عثمان الخياط الذي يشبه أن يكون عميدهم، وأكبر من عمل على تمرينهم وتوجيههم وتخريجهم بدروسه التي كان يلقيها عليهم، ووصاياه التي كان يذيعها فيهم ساعياً إلى تنشئتهم تنشئة صالحة، ومن وصاياه لهم قوله: « جسِّروا صبيانكم على المُخَارَجات، وعلموهم الثقافة، وأحضروهم ضرب الأمراء أصحاب الجرائم لئلّا يجزعوا إذا ابتلوا بذلك، وخذوهم برواية أشعار الفرسان، وحدثوهم بمناقب الفتيان، وحال أهل السجون. وإياكم والنبيذ فإنها تورث الكِظَّة[3]، وتحدث الثقل، وتدعو إلى النوم، ولا سيما بالليل، ولا بد لصاحب هذه الصناعة من جراءة وحركة وفطنة وطمع، وينبغي أن يخالط أهل الصلاح ولا يتزيّا بغير زيّه »[4].

وهذه وصية هي أقرب إلى أن تكون كالثقافة العامة التي كان على كل فرد منهم أن يتعلمها ويجيدها، لينتفع بها في حياته العملية، ولتكون له شخصية ألمعية قوية مثقفة بأخبار اللصوص الماضين، بصيرةٌ بصفاتهم من الفروسية والفتوة، والصبر على الشدائد، والاحتيال للمواقف، والتغلب على المصاعب، والتمييز بين الصواب والخطأ، ومعرفة الحق من الباطل، واجتناب الرذائل، ومعاشرة الأفاضل.

---

(١) محاضرات الأدباء ٢: ٨٢ .

(٢) المصدر السابق ٢: ٨٢.

(٣) الكظة: البطنة.

(٤) محاضرات الأدباء: ٢: ٨٢.

وكأنما أراد عثمان الخياط بهذه الوصية ومثيلاتها أن يرسم لرفاقه من اللصوص التعاليم الأساسية التي ينشأون عليها، ويتمسكون بها، حتى تتكون لهم شخصياتهم المستقلة المتكاملة التي تفرقهم من غيرهم بصفاتها المميّزة من زيّ ومعرفة منوعة، وسلوك صحيح، وهدف واضح، وحيلة لطيفة، وحجة بينة، وجسم سليم، وذهن متوقد.

ولم تقتصر وصاياه لهم على التعاليم التي تتعلق بنشأتهم؛ بل مضى بعظهم طالباً إليهم أن يكونوا عادلين في سلوكهم العملي، لا يجورون ولا يبغون، بل يقتصدون ويرعون حق الجوار، ويتعلون عن الحرام، ويجتنبون أخذ كل ما يمتلك التجار من الأموال، وإن كانوا أحق بها منهم لفسادهم وإنكارهم الودائع، وقعودهم عن دفع الزكاة، وفي ذلك يقول لهم[1] : « اضمنوا لي ثلاثاً أضمن لكم السلامة : لا تسرقوا الجيران، واتّقوا الحُرُم، ولا تكونوا أكثر من شريك مناصف، وإن كنتم أولى بما في أيديهم لكذبهم وغشهم وتركهم إخراج الزكاة وجحودهم الودائع ».

وهذا قليل من كثير ممّا كان يوصيهم به ويحضّهم عليه، لكي يكفل لهم النجاح في عملهم، ويجنبهم الأخطاء، ويحافظ عليهم، ولا يثير النّاس ضدّهم، ولا يعرضهم للأذى أو المكروه، حتى إنه ليصح أن نقول إنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بسلوكهم العملي إلّا ذكرها لهم مبيّناً شرّها من خيرها، وضررها من نفعها. بل لقد أذاع فيهم مجموعة من الإرشادات لا تدور على تثقيفه لهم بأسرار حرفتهم، وحدود مهنتهم، بل تدور على سلوكهم الذاتي، وما يجب عليهم أن يتخذوه وسيلة إلى ملاهيهم الشخصية مما ينفعهم في حياتهم العملية، ومنها قوله لهم : « إيّاكم وحبُّ النساء وسماع ضرب العود، وشرب الزبيب المطبوخ. وعليكم باتخاذ الغلمان، فإن غلامك أنفع لك من أخيك، وأعون لك من ابن عمك، وعليكم بنبيذ التمر، وضرب الطنبور، وما

---

(١) محاضرات الأدباء ٢ : ٨٢ .

كان عليه السلف. واجعلوا النّقْلَ باقلاء، وإن قدرتم على الفستق، والريحان شاهَسْفَرم[1]، وإن قدرتم على الياسمين. ودعوا لبس العمائم، وعليكم بالقناع. والقلنسوة كفر، والخف شرك. واجعل لهْوَك الحمامَ، وهارش الكلابَ، وإيّاك والكباشَ واللعبَ بالصُّقورة والشواهين، وإيّاكم والفهود، وعليكم بالنّرد ودعوا الشطرنج لأهلها، والوَدَعُ رأسُ مالٍ كبير، وأول منافعه الحِذْق باللّقف »[2].

فهو لا يبيح لهم أن يسرفوا في طلب الملذات، ولا أن يتهالكوا على كل أنواع المسرّات، حتى لا تذهب قوتهم، ولا يشغلوا بها عن عملهم الأساسي، وإنما كان يبيح لهم الاستمتاع بما يسبب لهم بعض البهجة، ويريحهم من أعباء الصناعة، ويجلب لهم النفع في العمل. ولذلك كان ينهاهم عن تعقب الجواري وملازمتهن ومواصلتهن، وحضور مجالس اللهو بما يشيع فيها من قصف وغناء وخمر، كما كان ينهاهم أيضاً عن اللهو بالصيد بالصقور، أو اللعب بالشطرنج، لأنها قد تستهلك حيويتهم، وتجعلهم يركنون إلى الراحة والخمول، وقد تستفرغ وقتهم، ولكنه كان يجيز مصاحبة الغلمان لأنهم يمكن أن يعينوهم في عملهم، وشرب النبيذ المصنوع من التمر الذي لا يقضي على فطنتهم، ولا يسلبهم نشاطهم، بل يزيدهم حيوية على حيوية، ونشاطاً إلى نشاط. كما أجاز لهم اللعب بالنّرد والودع، ومواثبة الكلاب ومقاتلتها، لأنها رياضة تضيف الى حذقهم حذقاً، والى صلابتهم صلابة. ولفت نظرهم أيضاً الى ما يمكن أن يتزيّوا به من الثياب، أو ينتعلوه من النّعال، داعياً لهم أن يختاروا منها الأنسب والأنفع.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون اللصوص العبّاسيون منظمين مدربين، بصيرين واعين محتاطين، وأن تكون حركتهم على جانب كبير من الخطورة، وأن تكون أعمالهم دقيقة ناجحة، لما كان يأخذهم به زعماؤهم ومعلموهم

---

(١) الشاهسفرم : نوع من الريحان يسمى الريحان السلطاني.

(٢) الحيوان ٢ : ٣٦٦.

من التدريب والتمرين، والتوجيه والتسديد لا فيما يختصّ بطبيعة صناعتهم وحدودها وأصولها، وحيلها ووسائلها فحسب، بل كذلك فيما يختصُّ بمسلكهم الشخصي ومتعهم في أوقات فراغهم.

— ٢ —
حيلهم وأعمالهم

تفترق حركة اللصوص العبّاسيين عن حركة الصعاليك الجاهليين والأمويين أشدّ الافتراق، فقد نشأ الأولون في بيئة صحراوية، ومجتمع بدوي، مما جعلهم يحترفون الغزو والإغارة للسلب والنهب مستخدمين أفراسهم ومستعملين أسلحتهم في غاراتهم على القوافل والقبائل والأسواق التي كانوا ينقضّون عليها وينهبون الأموال منها. وبذلك كانت وسائلهم التي اعتمدوا عليها في حياتهم مستمدة من بيئتهم، ومتّفقة مع طبيعة الحياة في مجتمعهم.

أما اللصوص العبّاسيون فنشأوا في بيئة متحضّرة، ومجتمع مستقر، وعاشوا في المدن كالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق وغيرها. وهي مدن اختلفت طبيعة الحياة فيها عنها في المجتمع البدوي اختلافاً كبيراً، فالنّاس فيها مقيمون في الدور، والتجار يزاولون أعمالهم في الأسواق التي كانت مخصّصة لهم، وموزّعة عليهم حسب أصناف تجاراتهم. والطرق التي تصل بين مدينة وأخرى، أو تربط بين حي وآخر لم تعد طرقاً بريّة مهجورة، بل كانت تقع في المدن، وفي المناطق المأهولة، كما أُضيفت إليها طرق نهرية. ولذلك هيأ هذا التغير في طبيعة البيئة، والتطور في نمط الحياة لتغيُّر وسائل اللصوص العبّاسيين، فإذا هم يهجرون الأفراس والرماح والنبال والسيوف ويهملون الغزو، ويعتمدون على الحيل اللطيفة، والخدع الطّريفة الخفيّة، ويتوعون فيها تنويعاً واسعاً، ويلائمون بينها وبين أهدافهم ملاءمة محكمة دقيقة. وبذلك

ضمنوا النجاح لأعمالهم في كل مكان من أماكن مجتمعهم، التي كانوا يسطون عليها ويسرقون منها. فقد ابتدعوا للمسجد حيلة، وللمسافرين في السفن حيلة، وللسائرين في الطرق حيلة، وللتجار في الأسواق حيلة بل حيلاً، وللدور حيلة، وبذلك تعدّدت الحيل وكثرت على نحو ما تعدّدت مظاهر الحياة في مجتمعهم وكثرت. ونحن نسوق بعضها لكي ندلّل بها على دقتهم في التّخطيط، وبراعتهم في التّنفيذ. ومن أشهر حيلهم التي اخترعوها للمساجد أنهم كانوا يترصّدون للتجار وأصحاب الأموال فيها، حتى إذا ما رأوا أحدهم قد دخل إليها، وأدّى الصلاة، ثم نام ووضع ماله تحت رأسه، ربطوا رجله بحبل متين، وشدّوه إلى وتدٍ قوي، ثم استلّوا صرته أو كيسه، فإن لم يشعر بهم، فرّوا آمنين، وإن أفاق وأحسّ أنه سرق وانطلق يعدو خلفهم، لم يمكنه الاستمرار في العدو إلّا بمقدار ما أرخوا له الحبل، ثم يقف[1].

أما المسافرون في السفن بين المدن فابتكروا لهم حيلاً أطرف وأدق، واشترك غير واحد منهم في تنفيذها، ومن أطرفها أنهم كانوا يعملون بنقل المسافرين على سفنهم، ويختارون الأوقات المناسبة لعملهم، وخاصة في آخر ساعات النهار، حين يتوقف غيرهم من الملّاحين عن العمل، ويكون المسافر المتأخر في أمسّ الحاجة الى من يوصله إلى بلده، فكان يظهر له ملّاح منهم في سفينة، ويقترب منه، ويرخّص الأجرة له، ثم لا يلبث أن يظهر لصٌّ آخر منهم على الشّط ويتعامى، ويأخذ في قراءة القرآن وترتيله ترتيلاً يخلب الألباب، ثم يستنجد برفيقه أن يحمله، ويشكو له سوء حاله وعجزه، فلا يلين له قلبه، ولا يعطف عليه، بل يغلظ له في القول، ويسبه ويشتمه، فيشفق المسافر عليه، ويسأله أن يحمله فيستجيب له. ولا تكاد السفينة تسير حتى يستأنف اللص المتعامي قراءته للقرآن وتجويده له تجويداً رائعاً، حتى يذهل المسافر ويغفل عما معه من المال، فيسرقه منه. وقبل وصولهم إلى الشطّ

---

(١) الأذكياء ص: ١٩٣.

الثاني ينتظرهم لصٌّ ثالث في موضع محدّد، حتّى إذا بلغوه ساح منه ولاصق السفينة، وعلى رأسه قَوْصرة[1] للتعمية والتمويه، فيعطيه اللصُّ المتعامي المال المسروق، فيأخذه بخفة، ويعود به إلى الشط. فإذا انتهت الرحلة، وهمّ المسافر بالنزول وافتقد ما معه، تظاهر الملّاح واللص المتعامي بأنهما لا يعلمان من أمره شيئاً، وشرح له الملّاح سوء حاله وأنه المعيل لأولاده وأهله، وشكا وبكى، وفعل الضرير مثله، فلا يجد المسافر وسيلة إلى العثور على ماله إلا بتفتيشهما، وتفتيش السفينة، ولا يظفر بشيء، فينزل وهو لا يشك في أنهما سرقاه[2].

وتَفَتَّقت قرائحهم عن حيل أخرى للسائرين في الطرق هي أشبه بالتنويم، حتى إذا غفلوا وأخذتهم سِنَةٌ من النوم استلّوا أموالهم أو إبلهم بما تحمل من المتاع وفرّوا بها. وفي ذلك يقول الجاحظ مصوّراً هذا النوع من حيلهم: نحن نرى كل من كان في يده كيس أو درهم أو حبل أو عصا، فانه متى خالط عينيه النوم استرخت يده، وانفتحت أصابعه. ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذي في يده عِنان دابة مولاه، ويَتَناوم له وهو جالس، لأن من عادة الإنسان إذا لم يكن بحضرته من يشغله، ورأى إنساناً قُبالَتَه يتثاءب أو يَنْعَس أن يتثاءب وينعس مثله فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العِنان، وقد خامره سكر النوم، ومتى صار إلى هذا الحال، ركب المحتال الدابة ومَرَّ بها[3].

وابتدعوا حيلاً أخرى لأصحاب الدكاكين من بزازين وصيارف وغيرهم، ومن أذكرها أن اللص منهم كان يودع عند صاحب الدكان وديعة، ويختلف إليه في الحين بعد الحين، ويأخذها متفرقة على أيام، حتى يعرف صندوقه الذي يحفظ فيه ماله، ويألفه، وتنعقد بينهما مودّة وثيقة، وحينئذ يزين له « أن

---

(١) القوصرة: وعاء من قصب.

(٢) الفرج بعد الشدة ٢ : ١٢٤، والأذكياء ص : ١٨٦.

(٣) الحيوان ٣ : ٤٠٩.

قفّلَ الرجل صاحبه في سفره، وأمينه في حضره، وخليفته على حفظ ماله، والذي ينفي الظّنة عن أهله وعياله، وإن لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل إليه ». ثم لا يلبث أن يسأله عن قفل دكانه، وممن ابتاعه ليبتاع مثله لنفسه، فيخبره ممن اشتراه، فيشتري قفلاً مثله، ويأتي بليل وقد تزيّا بزيّه، فإن كان حارس السوق غائباً فتح الدكان وسلب ما فيها من المال، وإن كان حاضراً، لا يشك بأنه صاحب الدكان لأنه يظهر بمظهره، فيدّعي أن له بدكانه في تلك الليلة شغلاً، فيساعده في فتحها، ويخرج الدفاتر، وينظر فيها، ثم ينهب ما بها من المال، ويغلق الباب، والحارس يعاونه، فيثيبه ببعض الدراهم ويفر[1].

واحتالوا للدور بحيل متنوعة، منها أن يتسلق اللص منهم جدار الدار، ثم يحفر في ساحتها حفرة كأنها بئر نرد، ويطرح فيها جوازات كأن إنساناً يلاعبُه، ويضع بجانبها منديلاً فيه مائتا جوزة. ثم يمضي يدور في الغرف، ويكور كل ما يطيق حمله منها. فإن لم يفطن به أحد خرج بما سرق، وإن جاء صاحب الدار ترك على ما كور قماشة وطلب المفالتة والخروج، وإن كان صاحبها جلداً فواثبه ومانعه وهم بأخذه وصاح اللصوص، واجتمع الجيران، أقبلَ عليه، وادّعى أنه كان يقامره منذ شهور حتى أفقره وأخذ منه كل ما يملكه وأهلكه، وهدّده بكشف أمره لجيرانه، لأنه حين خسر صاح وامتنع عن دفع ما ربحه منه، فلا يشك أحد في قوله، وأن صاحبه يرميه باللصوصية، ويفلت منه ولا يشك أحد في أنه صادق وأن صاحب الدار مقامر[2].

ومنها أنهم كانوا يراقبون التاجر ويعرفون ثروته وموضعها، فإذا استعصت عليهم سرقتها من دكانه أو من منزله لعلو سوره، وكثرة أقفال بابه وقوتها

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢ : ١٢٥. والأذكياء ص : ١٨٥.

(٢) الأذكياء ص : ١٨٤.

احتالوا له بحيلة مناسبة، وذلك بأن ينتهزوا فرصة غيابه عن داره، ويطرقوا بابه عند المساء قبل حضوره ومعه شيء من ماله، ويتظاهروا بأنهم يطلبون الصدقة. فتفتح لهم جاريته، فيختفون عنها، ثم يعاودون الطرق، فتفتح لهم، وتخرج في طلب الطارق، وتبتعد بعض الخطوات عن الباب، فيدخل أحدهم إلى الدار، ويكمن في ناحية منها، ويظل إلى أن يعود صاحب الدار ويغلق الباب. وبعد مضي شطر من الليل، يعبث اللص بشاة من شياه صاحب الدار، ويعركها، فتصيح، ويصحو صاحب الدار، ويسأل جاريته أن تفتقدها، فلا تجدها فَتُسْرِع وترجع إلى سيدها، فيكرر اللص عركه للشاة فتصيح، ويغضب صاحب الدار على جاريته ويوبخها، ويخرج بنفسه ليفتقد الشاة ويطرح لها علفاً، فيدخل اللص إلى غرفته ويفتح خزانته، ويحمل ما فيها، ويعود، مسرعاً إلى موضعه، ويختفي فيه إلى الفجر، حين تفتح الجارية الباب لسيدها فيخرج اللص ويهرب[1].

ومنها ما يروى من أنه كان لعجوز كثيرة الصيام والصلاة ابن صَيْرفيٌّ منهمك في الشراب واللعب، وكان يشتغل بدكانه أكثر نهاره، ثم يعود إلى منزله فيعطي كيسه لوالدته، ويخرج يطلب اللهو والمتعة. فدخل لص واختبأ بناحية من نواحي المنزل إلى أن رجع ابنها وسلمها كيسه وخرج. فحاول اللص أن ينتهز منها غفلة، فما قدر، فطاف في أنحاء المنزل فوجد إزاراً جديداً، وبخوراً، فاتزر بالإزار، وأشعل النار، وألقى عليها البخور، وأخذ يصيح بصوت غليظ ليفزعها مدعياً أنه جبريل رسول ربّ العالمين، وأن الله أرسله ليعظ ابنها الفاسق ويعامله بما يمنعه من ارتكاب المعاصي، وأنه إن تاب وأناب رد إليه ماله الذي سيأخذه، وإلا فقد نال عقابه[2].

---

(١) الأذكياء ص : ١٩٤.

(٢) الأذكياء ص : ١٩٨.

ولهذه الأخبار التي ذكرناها والحيل التي أثبتناها أهمية بعيدة، فهي من ناحية تطلعنا على معرفة اللصوص العبّاسيين بأصول صناعتهم، وتمرّسهم بحرفتهم، ودقّتهم في تلصّصهم، حتى أجادوها غاية الإجادة، ووفقوا في الملاءمة بين حيلهم وطبيعة الحياة في مجتمعهم المتحضر أحسن التوفيق، مُمَوِّهين على الناس أعمالهم، ومُخْفِينَ لها عنهم حتى كانوا لا يشعرون بهم ولا يشكون فيهم.

وهي من ناحية ثانية تطلعنا على تغيّر وسائلهم، وتحولها من التجرّد للغارات على القبائل والقوافل والأسواق إلى التلصّص الخفي، الذي يعتمد على الحيلة والخدعة في سرقة الأموال من الدور والسبل والطرق والأسواق، مما يميّزهم عن الصعاليك الجاهليين والأمويين الذين كانوا ينهبون ويسرقون معتمدين على قوتهم وأسلحتهم أو على غفلة من كانوا يغيرون عليه، أو على ابتعادهم عن الأماكن المأهولة، وتربصهم بالقوافل في المواضع النائية المهجورة، والمسالك القصيّة الوعرة.

— ٣ —
مبادئهم وأهدافهم

لم تدرس حركة اللصوص العبّاسيين دراسة وافية تقوم على استقصاء أخبارهم وأشعارهم، والربط بين نشأتهم والظروف الاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي كانت تحيط بهم، والتي أدّت إلى ظهورهم، واحترافهم التلصّص وسيلة إلى حياتهم وكسب أقواتهم، ولا استخلصت مبادئهم وأهدافهم من مجموع أخبارهم وأشعارهم وسلوكهم العملي. ولذلك خفيت على بعض الباحثين حركتهم بحقيقتها. بل لقد نظمهم جرجي زيدان في عداد الرعاع الذين يرتزقون من النهب واللصوصية، ووصفهم بأنهم من أهل البطالة

الذين يحترفون السرقة والتَّحرُّش بأبناء السبيل[1]. وهي أحكام غير صحيحة أطلقها عليهم وعَمَّمها دون تدقيق أو تمحيص، فهم من ناحية لم يكونوا من الرعاع وأهل البطالة، بل كانوا طبقة من الطبقات الفقيرة المظلومة المعدمة، ولكنهم كانوا مع فقرهم وبؤسهم مثقّفين ثقافة واسعة بأخبار أمثالهم من الصعاليك واللصوص الجاهليين والأمويين الذين كانوا يتخذونهم مثلاً يحتذى في الشجاعة والمضاء وصحة العزم، وحسن السلوك، ووضوح الغاية. كما كانوا بصيرين بأحوال مجتمعهم وما شاع فيها من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية، وكانوا أيضاً منظمين مدربين، وكان لهم زعماؤهم الذين يتولون تربيتهم وتنشئتهم، ويأخذونهم بغير قليل من التوجيه والتوعية، مبيّنين لهم أسباب تجرّدهم للصوصيّة، وراسمين المبادىء التي كان عليهم أن يلتزموا بها، والحدود التي كان عليهم أن لا يتجاوزوها.

وهم من ناحية ثانية لم يكونوا يعمدون إلى إيذاء الناس والاعتداء عليهم دون تمييز بينهم، فقد كانوا يفرقون تفريقاً دقيقاً بين الصالح والمنحرف منهم، وبين الكريم والبخيل، كما كان عملهم مبنيّاً على قواعد صحيحة، ومثالية خلقية رفيعة، اصطلحوا هم على تسميتها بالفتوة. وهي فتوة كانت تشبه في كثير من مظاهرها فتوة رفاقهم من الصعاليك واللصوص الجاهليين والأمويين. وأول مظهر من مظاهر فتوتهم التي اعتدُّوا بها أنهم لم يكونوا يسرقون كل التجار، ولا ينهبون كل الأغنياء، فقد تَسَلَّطُوا على جماعة معينة منهم، اتَّضح لهم فسادها، وصحَّ عندهم التعرُّض لها واغتصاب أموالها، إمَّا لكذبها وغشّها، وإمَّا لبخلها وشُحِّها.

أما التجار فلم ينهبوا إلّا مال الكاذب المخادع منهم، الذي كان يتلاعب بالأسعار، ولا يخرج الزكاة، ويأكل أموال الناس ظلماً وعدواناً، بل لقد ذهبوا إلى أن أصل مال التاجر إذا كان حلالاً، ثم اتَّجر به ونمّاه، ولم يدفع زكاته

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٥٢.

في كل عام، فقد استحال كله حراماً، وجاز لهم اغتصابه دون إثم أو حرج لأنهم فقراء محتاجون إليه لإقامة حياتهم. وفي ذلك يقول أحدهم قولاً مشهوراً رواه الجاحظ في كتاب اللصوص، واتخذه اللصوص فيما بعد دليلاً قوياً لتسويغ عملهم، والاحتجاج على من كان يلومهم وينتقدهم. وهو يجري على هذا النحو : «إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس، لأنهم منعوها وتجردوا، فتركت عليهم، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء إليها، فإذا أخذوا أموالهم ــ وان كره التجار أخذها ــ كان ذلك لهم مباحاً، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو كرهوا»[1].

وهذا نصّ له قيمته لأنه ينبئنا بثقافة اللصوص العبّاسيين الفقهية، وبتعاطيهم لحرفتهم على أسس دقيقة، كما أنه ينبئنا بعدلهم واقتصادهم في عملهم، لأنهم لم يكونوا يسلبون من التجار الكذّابين إلّا بمقدار ما استحق عليهم من الزكاة التي منعوها، لأن الزكاةَ فَرضٌ عليهم، وحق للفقراء المحتاجين يكسبون به أرماقهم ويصلحون أحوالهم.

وكانوا إذا ما احتجَّ أحد من الناس عليهم لسرقتهم أموال التجار يُدَلّلون على صدق رأيهم فيهم، وصحة تقديرهم لهم، وما أباحوه لأنفسهم من سلب قسم من أموالهم بالدّليل العملي، زيادة على الدّليل النظري، الذي يقوم على قاعدة فقهية مقرّرة، وذلك بأن يحضروا جماعة من التجار، ويسألوهم عن مبلغ أموالهم، وعدد السنين التي اتّجروا بها فيها، ومقدار ما أخرجوا من الزكاة في كل عام عنها، ومراجعتهم في ذلك واحداً واحداً، فكان التجار لا يعرفون الزكاة على حقيقتها، فضلاً عن أن يخرجوها[2]، وكان من سارع إلى

---

(١) الفرج بعد الشدة ٢ : ١١٧.

(٢) المصدر السابق ٢ : ١١٧.

لومهم يقتنع برأيهم، ولا يجد سبيلاً إلى الطعن فيهم، أو معاودة الاحتجاج عليهم.

وثمة فئة أخرى من التجار لم يتورّعوا عن نهبهم، ولم يجدوا حرجاً في التعرُّض لهم، والاستيلاء على أموالهم، وهي فئة التجار الخونة الذين لم يكونوا يفُون بالعهود، ولا إتّصفوا في حياتهم الشخصية بالتّقوى والصلاح، بل انغمسوا في الفسق والعبث، وفيهم يقول عثمان الخياط شيخ اللصوص لهذا العهد موضّحاً لرفاقه من اللصوص أن الغزو والنهب ظاهرة تنشأ في المجتمعات على توالي العصور، ومبيحاً لهم سرقتهم، وطالباً إليهم أنْ يُسَمُّوا أنفسهم غُزاةً على نحو ما سمى الخوارج أنفسهم شُراة: «لم تزل الأمم يسبي بعضهم بعضاً، ويسمُّون ذلك غَزواً، وما يأخذونه غنيمة، وذلك من أطيب الكسب، وأنتم في أخذ مال الغدرة والفجرة أعذَر، فسمُّوا أنفسكم غزاة»[1].

بل لقد وازنوا بين أنفسهم واحترافهم اللصوصية لتحصيل أرزاقهم، وبين غيرهم من كبار رجال الدولة الذين كانوا يرتكبون الآثام التي لا تغتفر كالارتشاء وأكل أموال اليتامى، مُفضّلين أنفسهم عليهم درجات، ومُسَوّغين لها النهب في حدودٍ مرسومةٍ، لِما كانوا يعتقدون من أنهم لا يقترفون خطأً، بل ينهضون بالواجب الذي يكفل لهم الرزق، ويُوفّر عليهم أسباب المعيشة[2].

وأما الأثرياء الكرماء فكانوا يحترمونهم ويقدرونهم ولا يصيبونهم بسوء، وإنما كانوا يسطون على الأشحاء المقترين منهم، ويسرقون منهم ما قدروا عليه، وفي ذلك يقول أحدهم[3]:

---

(١) محاضرات الأدباء ٢ : ٨٢.

(٢) المصدر السابق ٢ : ٨٢.

(٣) المصدر السابق ٢ : ٨٢.

وَعيَّابةٍ للجودِ لم تَدْرِ أَنَّنـي بإنهابِ مالِ الباخلينَ مُوكَّـلُ
غَدَوْتُ عَلَى ما احتازه فَحَوَيْتُهُ وغَادَرْتُـهُ ذَا حَيْـرةٍ يَتَمَلْمَـلُ

فهو كريم بطبعه، ولكنه لا يملك من المال ما يجود به، ولذلك فإنه يغتصب مال الغني الحريص على ثروته، الضنين بها، الذي لا يتصدق بشيء منها، لكي يحيا سنته في حياته، ويقوم بواجبه نحو إخوانه.

وكان عثمان الخياط يلص على حواشي الخلفاء الذين كانوا يتمتعون بزينة الحياة، وعلى الشاذّين وقطّاع الطرق، وعلى الفاسقين العابثين، وعلى الأغنياء المترفين الذين كانت تساق إليهم طيّبات الأرض من كل لون. وفي ذلك يقول مُتَمَثِّلاً ببيتين لأبي نواس، ومُبَدِّلاً في روايتهما لكي يتفقا مع غايته وهدفه[1] :

سأبغي الفَتَى إمَّا جَليسَ خَليفةٍ يَقومُ سَواءً أو مُخيفَ سَبيـلِ
وأسرقُ مالَ اللهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ وذي بِطْنَةٍ للطَّيباتِ أكُـولِ

وهذا هو المظهر الأول من مظاهر فتوتهم. وثاني مظاهرها رعايتهم لحق الجوار، واجتنابهم أخذ الأموال من الناس ظلماً، وارتفاعهم عن مجازاة الناس سيئة بسيئة. ومن أوضح الشواهد على ذلك قول عثمان الخياط : « ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا كريماً، ولا كافأت غادراً بغدره »[2].

وثالث مظاهرها الصدق والوفاء بالعهد والأمانة في المعاملة، إذ يقول عثمان الخياط مقرّراً هذا المبدأ « ما خُنْتُ ولا كذبتُ منذ تَفَتَّيْتُ »[3]، لأنه لم يكن يستحسن مع الفتوة إلّا الصدق[4].

---

(١) محاضرات الأدباء ٢: ٨٢. وقارن بديوان أبي نواس ص : ١٧.
(٢) محاضرات الأدباء ٢ : ٨٢.
(٣) محاضرات الأدباء ٢ : ٨٢.
(٤) الأذكياء ص: ١٩٥.

ورابع مظاهرها الابتعاد عن إلحاق الأذى بالناس؛ وكُرْهُ اللُّجوء إلى قتلهم إذا ضاقت عليهم الحيلة وهم يسرقون بعضهم، وذلك قول عثمان الخياط لتاجر من كبار تجار البصرة اقترض منه مالاً ثم رَدَّه إليه، فحاول استمالته واسترضاءه بوهبه له فرفض وأجابه : « لو أردت أخذ مالك باللصوصية فعلت. ولكنك رئيس بلدك، ولا أريد أذِيَّتك، فإن ذلك يخرج عن الفتوة »[1].

وهذه هي أهم مظاهر فتوتهم التي كانوا يراعونها في حياتهم، ويستأنسون بها في سلوكهم. وهي مظاهر تجعلها تقترب أشدَّ الاقتراب من الفتوة العربية بمعناها الواسع[2]، إذ تشتمل على أشهر مقوماتها من شجاعة وقوة احتمال، ومحافظة على الجار، ووفاء بالعهد، وابتعاد عن الخيانة والغدر، وحلم وسعة صدر، وتَنكُّب للسفك والفتك وإراقة الدماء، ورفق بالضعفاء.

وأما أهدافهم التي كانوا يسعون إليها فلا تخرج عن طلب الرزق لإقامة أنفسهم والتساوي مع غيرهم من الأثرياء الذين كانوا يعيشون في سعة ودعة، في حين كانوا هم يشقون في حياتهم، ولا يحظون بأي رعاية من السلطان، أو مواساة من مؤسسة اجتماعية أو طبقة من الطبقات الموسرة.

ولا بد أن يلاحظ الدارس على هذا الفصل أنه كان يخلو من الشعر بالقياس الى الفصل السابق الذي أفردناه للصعاليك الفقراء، لأننا لم نتمثل فيه إلا بأبيات معدودة. وسبب ذلك أن المصادر الأصلية التي وضعت في أخبار اللصوص العبّاسيين وأشعارهم قد ضاعت، ولو وصلت إلينا لظفرنا فيها بشعر كثير لهم، لأن بعضهم كانوا شعراء، وخاصة عثمان الخياط كبير اللصوص لهذا العصر، فقد روى له عبد القادر البغدادي بيتاً في المديح، وهو قوله[3] :

(١) الأذكياء ص : ١٩٥.

(٢) الفتوة عند العرب ص : ١٩.

(٣) خزانة الأدب ٢ : ١٩٧.

يا مُطْعِمَ الطَّيْرِ لَحومَ العِدَا فكلها تثني عَلَى بَأْسِهِ

مما يدل على أنه كان يجيد نظم الشعر في الموضوعات التقليدية. وظاهر مما أسلفنا أن اللصوص العباسيين كانوا يؤلفون عصابات لها قوتها وخطرها، وهي عصابات كانت منظمة مدربة متخصّصة مثقّفة، لها رؤساؤها ومبادؤها وحيلها وغاياتها المحددة المقيدة بضوابط أخلاقية سامية. فقد كان أفرادها لا يطلبون إلا الفوز بما يحفظ حياتهم، والمساواة مع غيرهم في أسباب العيش، كما كانوا يتعرضون للتجار المخادعين المانعين الزكاة، والأغنياء الأشحاء، وكانوا أيضاً يخضعون في سلوكهم العملي والذاتي لقواعد ثابتة لا يشذّون عنها، ولا يخرجون عليها، وهي ما عرف عندهم باسم الفتوة.

الفصل الخامس

طوائف أخرى من الصعاليك

— ١ —

العيّارون

هم فئة متميّزة من الصعاليك الفقراء[1]، كان أكثرهم من الأحباش والأفارقة الذين جلبوا إلى بغداد للقيام ببعض الأعمال الحقيرة كالخدمة في القصور والمزارع. ويبدو أنهم كانوا يعيشون في ضيقٍ شديدٍ، وأن أسباب الحياة الضرورية لم تكفل لهم، بل ظلموا وعوملوا معاملة قاسية سيئة، مما اضطرهم إلى التمرد والثورة، وإلى اكتساب أقواتهم بالتلصّص والسرقة، فإذا السلطان يتعقبهم ويعاقبهم بالحبس حتى امتلأت السجون بهم.

وحين حاصر طاهر بن الحسين بغداد، في أثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون، واضطربت الأمور بها، وعمتها الفوضى، خرجوا من سجونهم، ونظموا أنفسهم، وأخذوا يغيرون على الناس وينهبون أموالهم، كما اصطنع الأمين بعضهم، وضمهم إلى جيشه، فقاتلوا معه قتالاً عنيفاً، وانتصروا على قادة طاهر بن الحسين في كثيرٍ من الوقائع، لمضائهم وحسن بلائهم.

والمدلول اللُّغوي لهذه الكلمة غير دقيق، لأنه لا يدل على أصل العَيَّارين، ولا على طبقتهم الاجتماعية، وإن كان يدل على بعض صفاتهم وأعمالهم،

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١١ : ٨٧٣، ٨٨١، ٨٨٥، ٨٨٦، ٩٠١، ٩٠٢. ومروج الذهب ٣ : ٤٠٣ — ٤١١. والكامل في التاريخ ٦ : ٢٧٥.

فالعيَّار في اللغة «هو الرجل الذكي الكثير المجيء والذهاب في الأرض، النشيط في المعاصي»[1]. وبعبارة أخرى هو الذي يتَّصف بالفطنة والقوة والنشاط، وكثرة التطواف والحركة، وهو الذي انفصل عن مجتمعه وخرج عليه، واتخذ لنفسه في الحياة مذهباً يخالف مذاهب النَّاس عَدُوُّه من المعاصي.

وإذا جمعنا التفسير اللُّغوي للكلمة إلى أخبار العيَّارين وسيرتهم في مجتمعهم، اتَّضح لنا أنهم كانوا يؤلفون طبقة من الطبقات الدنيا المنبوذة المظلومة، التي ثارت على واقعها، وسعت إلى تغييره بتمرُّدها وثورتها، وباحترافها التلصُّص وسيلة إلى حياتها.

على أنه ليس بين أيدينا أخبار كثيرة عن العيَّارين في العصر العبّاسي الأول، ولولا أنهم شاركوا مع الأمين في حرب طاهر بن الحسين حين هاجم بغداد، لما احتفظ لنا المؤرخون بشيء من أخبارهم وأشعارهم، ولما نقلوا إلينا الأشعار التي نظَّمها غيرهم من الشعراء في وصفهم.

ويؤخذ من مجموع أخبارهم وأشعارهم أنهم حققوا في هذه الفتنة غايتين، فهم من ناحية وجدوا فيها الفرصة السانحة للسلب والنهب، فاحتازوا بذلك من المتاع والمال ما أغناهم، وفي ذلك يقول أحدهم مبيّناً كيف أنهم كانوا يبلون في الحرب بالنهار، ويسلبون وينهبون بالليل[2] :

وما قَتَل الأبطالَ مِثْلُ مُجَرِّبٍ   رَسُولُ المَنايَـا لَيْلَـهُ يَتَـلَصَّصُ

ويقول عمرو بن عبد الملك العِتْرِيّ موضّحاً كيف أنهم كانوا من أهل السجون، وأنهم كانوا يبلون في الحرب أحسن البلاء، وأنهم كانوا يغتصبون حتى أثروا وحسنت حالهم ممّا استولوا عليه من المتاع والأموال[3] :

---

(١) اللسان : مادة «عَيَر».

(٢) تاريخ الطبري ١١ : ٨٨٨.

(٣) المصدر السابق ١١ : ٨٩٤.

فَتَلَقَّـــــــاه كُلُّ لِصٍّ مُرِيبٍ عَمَّر السِّجْنَ دَهْرَهُ بالشَّطَــارَهْ
فَتَوَلَّوْا عنهــم وكانــوا قديمــاً يُحْسِنُون الضِّرابَ في كُلِّ غَارَهْ
كُلُّ من كان خامِلاً صارَ رَأْساً من نَعِيــمٍ في عَيْشِهِ وغَضَارَهْ
أَخْرَجَتْـهُ من بَيْتِها أُمُّ سُوءٍ طَلَبَ النَّـهْبَ أُمُّـهُ العَيَّـارَهْ
كانَ فيما مَضى القتـالُ قتـالاً فَهُوَ اليـومَ يا عَلـيُّ تِجـارَهْ

ويقول عمرو الورَّاق واصفاً شدَّة مُقَارعتهم لجيش طاهر بن الحسين، وتقتيلهم له، وناصاً على أنهم كانوا أحباشاً كما كانوا عراة[1] :

كَمْ قتيــلٍ قَدْ رَأَينـــا ما سألنـــــــاه لِأَيْشٍ[2]
دَارِعـــاً يلقـــاه عُرْيَــا نٌ بِجَهْـــلٍ وبِطَـــيْشٍ[3]
إِنْ تَلَقَّـــاهُ بِرُمْــحٍ يَتَلَقَّـــاهُ بِفَـــيْشٍ[4]
حَبَشِيّـــاً يَقْتُــلُ النَّــا سَ عَلَــى قِطْعَـــةِ خَيْشٍ
يَحْمِلُ الحملةَ لا يَقْتُلُ إلّا رَأْسَ جَيْشٍ

ويقول مرة ثانية مصوراً سوء أحوالهم وعري أبدانهم، وكيف أنهم كانوا من اللصوص الذين كانوا يبحثون عن الثياب التي يسترون بها أجسامهم، ومصوِّراً أيضاً تدافعهم على الحرب تدافعاً، وانقضاضهم على الفرسان المدججين بالسِّلاح، وفتكهم بهم دون اكتراث لما قد يصيبهم[5] :

عريـــانُ لَيْسَ بِذي قمـــيصٍ يَغْدُو عَلَــى طَلَبِ القَمـــيصِ
يَغْـــدُو عَلَـــى ذي جَوْشَنٍ يُعْمي العيـونَ من الـبَصِيصِ[6]

---

(١) تاريخ الطبري ١١ : ٩٠١ .

(٢) لايش : لأي شيء.

(٣) الدارع : لابس الدرع.

(٤) الفيش : جمع الفيشة، وهي الذكر المنتفخ.

(٥) تاريخ الطبري ١١ : ٨٩٦.

(٦) الجوشن: الدرع. البَصيص: النور.

فِي كَفِّـــــــــــــــه طَرَّادَةٌ   حَمْـراءُ تَلْمَـــعُ كالـفُصُوصِ[1]
حَرِصاً عَلَـــى طَلَبِ القِتَـــا   لِ أَشَدَّ مِنْ حِرْصِ الحَرِيصِ
لَيْثــــاً مُغيـــراً لَمْ يَزَلْ   رَأْساً يُعَــدُّ مِنَ اللُّصوصِ

فهذه النصوص التي نظمها بعضهم، والتي نظم بعضها غيرهم من شعراء بغداد تكشف عن أنهم كانوا معروفين متميّزين في مجتمعهم، وأنهم كانوا من الأحباش، وأنهم كانوا فقراء فقراً شديداً عريت معه أجسادهم، ولم يملكوا من المتاع ما يسترون به عوراتهم، وتكشف أيضاً عن أنهم كانوا من أهل السجون، وأنهم كانوا متمرسين بحرفتهم، وأنهم كانوا أشداء أقوياء حتى هزموا جيش طاهر بن الحسين، وقتلوا من جنوده عدداً كبيراً، كما تكشف كذلك عن استغلالهم للفوضى التي سادت بغداد للانتهاب والاغتصاب.

وهم من ناحية ثانية أثبتوا في هذا الظرف مقدرتهم الحربية، واستعدادهم للقتال في أصعب المواقف، وانصياعهم للأوامر، وانتظامهم انتظاماً أذهل قادة طاهر بن الحسين، إذ كانوا يصارعون جنودهم المدججين بالسلاح، ويتغلبون عليهم. فقد ذكر المسعودي أن العيّارين كانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين والمآزر[2]، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ، ودَرَقاً من الخوص والبواري[3] قد قُيِّرت وحُشيت بالحصى والرمل. وكان على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير. وكان لكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده. ولم يزالوا ينازلون جيش زهير بن المسيب الضَّبّي، وجيش غيره من القادة، ويرمونهم بالمقلاع والحصى حتى قهروهم في كثير

(١) الطرادة : الرمح.

(٢) التبابين: جمع تبن وهو السروال الصغير. المآزر جمع المئزر والإزار وهو الملحفة.

(٣) الدرق : ضرب من الترسة يتخذ من الجلود. البواري : جمع البوري، وهو الحصير المنسوج من القصب.

من المعارك لقوتهم وثباتهم. ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام المنجنيقات والجنود المسلَّحين المدرَّبين إلى آخر الشوط، فدارت عليهم الدائرة في آخر الأمر، وقُتِلَ كثيرٌ منهم. وفي ذلك يقول شاعر بغدادي واصفاً صدقهم في الحرب، وما نالوه من الشهرة فيها، وناصاً على أنهم لم يكونوا من العرب، ومصوِّراً ما كانوا يتخذونه من عدَّة الحرب[1] :

خَرَجَتْ هذهِ الحروبُ رِجالاً
لَا لِقَحْطانِها وَلَا لِنِزارِ
مَعْشَراً في جَواشِنِ الصُّوفِ يَغْدُو
نَ إلى الحربِ كالأُسودِ الضواري[2]
وعليهم مَغَافِرُ الخُوصِ تُجزيـ
ـهِمْ عَنِ البِيْضِ والتِّراسِ البَواري[3]
لَيْسَ يَدْرُون ما الفِرارُ إذا الأبـ
ـطالُ عاذُوا من القَنا بالفِرارِ
واحدٌ منهم يَشُدُّ على أَلـ
ـفَيْنِ عُرْيانٌ ما لَهُ مِنْ إزارِ
ويقولُ الفَتى إذا طَعَنَ الطَّعْـ
ـنَةَ خُذْهَا من الفَتى العَيّارِ
كَمْ شَريفٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُ وكَمْ قَدْ
رَفَعَتْ مِنْ مُقامِرٍ طَرّارِ[4]

---

(١) تاريخ الطبري ١١ : ٨٨٦، ومروج الذهب ٣ : ٤٠٦.

(٢) الجواشن : جمع جوشن، وهو الدرع.

(٣) المغافر : جمع مغفر، وهو ما يلبسه الدارع على رأسه. البواري : الحصير المنسوج من القصب.

(٤) الطرار : اللص الذي يشق الكلم ويسلب ما فيه.

وهذه هي أشهر أخبارهم، وأذكر الأشعار التي قيلت فيهم لهذا العصر، ويمكن أن يتبيَّن الدارس المتتبع لحركتهم في العصور العبّاسية التالية، أنها قويت واشتدَّت، وأن مبادئهم وأهدافهم اتَّضحت وتكاملت، حتَّى أصبحوا خطراً على الخلافة ببغداد، وعملوا على اكتساب أرزاقهم بالانتهاب، ولكن دون بغي أو تَعَدٍّ أو مجاوزة للقصد، بل ضمن حدود، وخضعوا لضوابط وقواعد كانوا يلتزمون بها، ولا يشذُّون عنها.

وقد استقصى الدكتور عبد العزيز الدوري أخبارهم في العصر العبّاسي الثاني، ورفع عنهم ما أوقعه عليهم المؤرخون من الظلم، لأنهم لم يفهموا روح حركتهم، فسمُّوهم لذلك لصوصاً منحطِّين. وهم على التحقيق لم يكونوا كذلك، بل كانوا يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة تكتلاً دفعهم إليه تباين توزيع الثروة في مجتمعهم، وسوء الوَضْع المعاشي الذي كانوا يرزحون فيه، ويُعانون أهواله، والفوضى السياسية التي رانت على الحياة في العصور العبّاسية المتأخرة. وانتهى أيضاً إلى أنهم يمثلون ثورة على أرباب السياسة وأصحاب الأموال الطائلة، وأنهم كانت لهم مبادىء أخلاقية ساروا عليها، وتمسكوا بها، ومنها : مجانبتهم الكذب وارتكاب المعاصي، وحفظ الحرم، والعفة، والأمانة، والرفق بالفقراء والضعفاء، والكرم، والصبر على احتمال الأذى[1].

ولعلّ فيما انتهى إليه الدكتور عبد العزيز الدوري في دراسته للعيَّارين في العصور العبّاسية المتأخرة، وفي كشفه عن الأسباب الخفية التي دعتهم إلى التحرك والتجمع، وفي استخلاصه للمبادىء الفاضلة، والغايات العادلة التي كانوا يجهدون لبلوغها ما يوضح ما غمض من أمرهم في العصر العبّاسي الأول، لأنهم كانوا في أول نشأتهم، ولأن المؤرخين جهلوا حقيقة حركتهم،

---

(١) دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص : ٢٨٢ ــ ٢٨٦.

مع نصبهم على أنهم كانوا من الأحباش، ومن اللصوص، ومن أهل السجون، وأنهم كانوا يقاسون في حياتهم الضياع والجوع والعري. وهو نص له خطره لأنه يحدد طبقتهم الاجتماعية، وبؤس حياتهم، وما كانوا يحسونه من التفرقة والتمييز بينهم وبين سائر الطبقات الغنية المترفة، ممّا كان يثيرهم ويهيجهم، ويدفعهم إلى الثورة دفعاً، ومما كان حافزاً قوياً للمؤرخين لكي يتأنوا في الحكم عليهم ويضعوهم في الموضع الصحيح من الثورات الكثيرة التي ماج بها العصر العبّاسي الأول.

ولكن المؤرخين لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل كان موقفهم من كل ثورة، ومن كل ثائر أن يسارعوا إلى الحكم عليه بالخروج على السلطان والقانون، واتهامه بالفسق والعصيان والطغيان، دون أن يلتفتوا إلى سبب ثورته، أو يهتموا بغايته، ومن غير أن يربطوا بين تمرُّده وبين الأحوال السياسية، والاقتصادية والاجتماعية المختلفة المتناقضة التي كانت تحمله على ذلك.

ومن العجيب أن ينقل بعض المؤرخين المحدثين أقوال القدماء وأحكامهم على العيّارين دون التثبت منها، أو عرضها على الوقائع التاريخية التي استخلصوها منها للتأكد من صحتها أو الكشف عن خطئها. فقد راحوا يصفون العيّارين بأنهم من الرّعاع، أي من سفلة النّاس وسُقّاطهم[1]، وقد صحّ عندنا أنهم كانوا طبقة من الطبقات الدنيا البائسة المظلومة، وأنهم لم يكونوا مطبوعين على التمرّد والتعرّض للناس بالمكروه، والميل إلى التلصّص والنهب، وإنما اضطروا إلى ذلك اضطراراً لكي يصلحوا من وضعهم الاجتماعي، وينتزعوا أقواتهم انتزاعاً، ويفرضوا وجودهم فرضاً، ويكتسبوا كرامتهم وعزّتهم اكتساباً.

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٥٢.

— ٢ —

الشُّطَّار

هم فئة ثانية من الصعاليك الفقراء اللصوص الذين عرفوا بهذا الاسم تمييزاً لهم من سائر طوائف الصعاليك لهذا العصر. وعلى نحو ما خفيت طبقة العيَّارين الاجتماعية على المؤرخين، فخلطوا لذلك بينهم وبين غيرهم من العابثين، خفيت عليهم أيضاً طبقة الشطَّار وأسباب تصعلكهم وتلصُّصهم، كما أخفق اللُّغويون في تحديد المعنى الدقيق لهذه الكلمة، وما كانت تدل عليه من طبقة اجتماعية متميِّزة، إذ ذهبوا يقولون : « إن الشَّاطر من تباعد عن الاستواء، أو نزح عن أهله وتركهم مراغماً أو مخالفاً، وأعياهم خبثاً »[1].

فهم يعترفون بأنهم هجروا مجتمعهم، ثائرين على قوانينه، ومُخْتَطِّين لأنفسهم منهجاً في الحياة يُغاير ما ارتضاه غيرهم، حتَّى اشتهروا به، وأزعجوا الناس، وأقلقوا الهيئة الحاكمة.

وإذا أضفنا إلى هذه المعاني التي استخلصناها من التفسير اللغوي للكلمة بما تكشف عنه أخبارهم وأشعارهم من أن سبب تمرّدهم وتلصّصهم يرجع إلى ما كانوا يحيون فيه من الفقر، استقامت لنا صورة واضحة عنهم، وهي صورة تنبىء بأنهم كانوا طبقة من الطبقات الفقيرة التي عانت الظلمَ الاجتماعيَ، وقاست أهوالَ الشدةِ والعدم، فعمدت إلى تحصيل أقواتها بالثورة على المجتمع ونظمه، مختارة التلصص والنهب وسيلة إلى حياتها.

وقد نشأ الشطَّار ببغداد، وظهروا أول ما ظهروا فيها، سنة إحدى ومائتين. وسبق أن ألممنا في الفصل الأول ببعض أعمالهم، وكيف أنهم كانوا من الضخامة والمنعة، حتّى عجز السلطان عن التعرّض لهم، أو القبض عليهم،

---

(١) اللسان : مادة « شطَر ».

وحتّى قطعوا الطرق، وغالبوا أهل القرى عليها، وسلبوا منهم ما استطاعوا من مال ومتاع، وباعوه في الأسواق جهراً[1].

ومن الخطأ أن نحكم عليهم بأنهم كانوا فُسّاقاً يبغون ويظلمون، دون أن نتبيَّن سبب قطعهم السبل، وإغارتهم على القرى، أو نعرف مقاصدهم التي كانوا يسعون إليها. ومن الخطأ أيضاً أن نوافق أحمد أمين على ما ذهب إليه من أنهم كانوا يعيشون في الأرض فساداً، وأنهم يختلفون عن الصعاليك الجاهليين لأنهم كانوا ينهبون ما قدروا عليه، ويعتدون على الأغنياء من غير تفرقة بين كريم ولئيم، ولأنهم لم يكونوا يوزعون ما يغنمون بينهم بالتساوي[2]، لأنه لم يحتج على ما ذهب إليه بأي دليل، بل كرّر رأي القدماء فيهم، وتقويمهم لحركتهم. وإن صحَّ ما رجّحه معتمداً على أقوال القدماء، فإنما يصح على فسّاق الحربية الذين استكثر المأمون منهم، واعتد بهم، ثم ضعف عن كفهم وردعهم عن ارتكاب الجرائم والاعتداء على النّاس.

أما الشطّار فاغتنموا الأوقات التي عمَّت فيها الفوضى بغداد، وأخذوا يغيرون على التجار والأغنياء والقرى، ويستولون على ما يستطيعون نهبه وحمله، لا حُبًّا في الغزو وطلباً للغنيمة، وإنما كسباً لأقواتهم.

ويظهر أن الشطّار كانوا منظمين متميِّزين لهم زيهم[3]، ولهم مبادئهم وأهدافهم التي كانت تشبه مبادىء اللصوص وأهدافهم التي وقفنا عندها في الفصل الرابع، كما كانت تشبه مبادىء الصعاليك الجاهليين وأهدافهم، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يعرفون بالفتيان، كما كانوا يوصفون بالفتوة[4].

---

(١) تاريخ الطبري ١١ : ١٠٠٨ ــ ١٠١٢، والكامل في التاريخ ٦ : ٣٢٤.

(٢) الصعلكة والفتوة في الإسلام ص : ٩٩.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ : ٥٣.

(٤) أنظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب الفتوة لابن المعمار ص : ٢٧.

ومن أهم الشطّار لهذا العهد ابن الطبيب، واسمه إسحاق بن خلف الحنفي. والراجح أنه نشأ نشأة فقيرة بائسة، وأن الفقر والحاجة هما اللذان دفعاه إلى الانضمام الى الشطّار، والاحتذاء على مذهبهم في الحياة. ولذلك يوصف بأنه كان في صدر حياته « رجلاً شأنه الفتوة ومعاشرة الشطّار، وانه حُبس في جناية جناها، فقال الشعر في السجن »[1].

وهو لا يتركنا نفترض افتراضاً ونرجّح ترجيحاً في مسألة فقره، بل يعلن في كثير من الوضوح أن العوز هو الذي حمله على التلصّص، وركوب أهوال الليل، وتجشم الأخطار والمكاره-لكي يوفر لابنة أخته التي تبناها وربما بُلَغ العيش لكي يجنبها ذل السؤال، وجفاء الأهل. ويبلغ به الحرص عليها مبلغاً يتمنى معه أن تموت قبل أن يقعد عن إقامتها، أو تسوء حالها، إذ يقول[2] :

لَوْلاَ أُميمةُ لم أَجْزَعْ مِنَ العَدَمِ
وَلَمْ أَجُبْ في اللَّيالي حِنْدِسَ الظُّلَمِ[3]
وَزادَني رَغْبَةً في العَيْشِ مَعْرِفَتي
ذُلَّ اليتيمةِ يَجْفُوها ذَوُو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفَقْرَ يَوْماً أَنْ يُلِمَّ بها
فَيَهْتِكَ السِّتْرَ عَنْ لَحْمٍ عَلَى وَضَمِ[4]
تَهْوَى حَياتي وأَهْوِي مَوْتَها شَفَقاً
والموتُ أكرمُ نَزَّالٍ عَلَى الحُرمِ
أَخْشَى فَظَاظَةَ عَمٍّ أو جَفاءَ أَخٍ
وكنتُ أَبْقي عليها مِنْ أَذَى الكَلِمِ

---

(١) فوات الوفيات ١ : ١٦.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ٢٨٢، وفوات الوفيات ١ : ١٧.

(٣) الحندس : شدة الظلمة.

(٤) الوضم : ما يوضع عليه اللحم من الخشب وغيره.

فالضّيق والإقلال هما المشكلة الأساسية في حياته، وهما اللذان جَرّاه إلى الشطّار جرّاً، وهما اللّذان أغرياه باحتراف الإغارة على الناس للحصول على القوت الذي يكسب به أَوَدَه، وأَوَدَ ابنة أخته، وهما اللّذان أغوياه بالمُضي في انتهاج هذه السبيل.

ولكن يبدو أن سجنه وضع حداً لشطارته وغاراته، وأنه عدل عن التلصّص إلى المديح، مع تمسكه بالفتوة ومبادئها إلى آخر حياته حتّى توفي سنة ثلاثين ومائتين[1]، ومع ثورته في بعض الأحيان على كبار رجال الدولة، واصطناعه أسلوب الهجاء الفاحش لتخويفهم وإجبارهم على مواساته بشيء من المال، تماماً مثلما فعل الصعاليك الفقراء حين رَدَّهم الوزراء والعمال خائبين، ومنعوهم أقل القليل.

ولم يميّز القدماء بين شعره الذي نظمه في الفترة الأولى من حياته، يوم أن كان يصحب الشطّار، ويلصُّ معهم، ويحتذي على مذهبهم، وبين شعره الذي نظمه في الفترة الثانية من حياته، بعد أن حبس وتاب وأناب. ويغلب على الظنّ أن ما بقي من شعره هو من نتاج المرحلة الثانية من حياته إلّا الأبيات التي أنشدناها له قبل حين، والتي وصف فيها أسباب تصعلكه وتلصُّصه.

وقد توزعت الباقي من شعره موضوعات مختلفة، إذ منه ما صور فيه طلبه للعربية، ومدحه للنحو لأنه يقيم لسانه وأسلوبه، وذلك قوله[2] :

النحوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسانِ الألْكَنِ ... والمرءُ تُكْرِمُهُ إذا لَمْ يَلْحَنِ
وإذا طلبتَ مِنَ العُلومِ أَجَلَّها ... فأَجَلُّها عندي مُقيمُ الألْسُنِ

ومنه ما خصّصه للوصف، وقد احتفظ له القدماء ببيتين وصف فيهما السيف، طارا له بين الناس لجودتهما وروعتهما، بل إن ابن شاكر الكتبي ينقل

---

(١) فوات الوفيات ١ : ١٧.

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣. وفوات الوفيات ١ : ١٧.

عن المبرد أنه قال فيهما : إنهما أحسن ما سمع في وصف رونق السيف، وهما[1] :

أَلْقَى بجانبِ خصْرِهِ   أَمْضَى مِنَ الأجَلِ المُتاحِ
وكأنَّما ذَرَ الهَبَاءِ   عليه أنْفَاسُ الصَّبَاحِ

ومنه ما مدح به بعض القادة طلباً لنوالهم، ومن ذلك قوله يمدح علي بن عيسى بن موسى بن طلحة الأشعري المعروف بالقُمِيّ نسبة إلى قُم، وهي مدينة أنشأها العرب بالري. وهو مدح أثنى المبرد عليه، ووصفه بأنه ممّا يستحسن من أشعار المحدثين، لطرافته وجودته، ومنه هذه الأبيات[2] :

ولِلْكُرْدِ منكَ إذا زُرْتَهُمْ   بكَيْدِكَ يَوْمٌ كيومِ الجَمَلْ
وَمَا زالَ عيسى بنُ موسَى لَهُ   مَواهِبُ غَيْرُ النِّطافِ المُكُلْ[3]
لَسَلُّ السُّيوفِ وَشَقُّ الصُّفوفِ   لِنَقْضِ التِّراتِ وَضَرْبِ القُلَلْ[4]
ولُبْسُ العَجاجَةِ والخَافِقَاتُ   تُريكَ المَنَا برؤوسِ الأَسَلْ[5]
وَقَدْ كَشَرَتْ عَنْ شَبَا نابِها   عَرُوسُ المَنِيَّةِ بينَ الشُّعَلْ[6]
وَجَاءَتْ تَهادَى وأبناؤُها   كأنَّ عليهم شُروقَ الطَّفَلْ[7]
خَرُوسٌ نَطُوقٌ إذا اسْتُنْطِقَتْ   جَهولٌ تَطِيشُ عَلَى مَنْ جَهِلْ
إذا خُطِبَتْ أَخَذَتْ مَهْرَها   رؤوساً تَحادَرُ قَبْلَ النَّفَلْ[8]
أَلَذُّ إليهِ مِنَ المُسْمِعاتِ   وَحَثِّ الكُؤوسَةِ في يَوْمِ طَلّ[9]

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣، ٣ : ٤٨. وفوات الوفيات ١ : ١٧.
(٢) الكامل ٢ : ١٩.
(٣) النُّطافة : القليل من الماء. المكل : جمع مُكْلة، وهي القليل من الماء يبقى في البئر.
(٤) الترات جمع ترة وهي الثأر. القلل جمع قُلّة، وهي رأس الإنسان.
(٥) المنا : يريد المنايا.
(٦) الشبا : الحد.
(٧) الطفل : يريد تألق الحديد، كأنه شمس طالعة عليهم.
(٨) تحادر : تتحادر أي تتهاوى. النفل : الغنيمة والهبة.
(٩) المسمعات : القيان. الطل : الندى.

وهذا شعر يدل على أنه كان يحسن المدح، ويجيد الوصف، كما يدل أيضاً على أنه كان يبتغي الإطراف في معانيه وصوره جميعاً.

ومن شعره ما أفرده لهجاء كبار المسؤولين، لأنهم رفضوا الإحسان إليه، والتصدق عليه، ومنه قوله يهجو الحسن بن سهل وزير المأمون، مشهراً به، وساخراً منه[1] :

بَابُ الأَمِيـــرِ عَرَاءٌ ما بِهِ أَحَـــدٌ
إِلَّا امـرؤٌ واضِعٌ كَفّـاً عَلـى ذَقَـنِ
قَالَتْ وَقَـدْ أَمَّـلَتْ ما كنتُ آمَلُـهُ
هذا الأَميرُ ابنُ سَهْـلٍ حَاتِمُ اليَمَـنِ
كَفَيْتُكَ النَّاسَ لَا تَلْقَـى أَخَـا طَلَبٍ
بِفَيْءِ دَارِكَ يَسْتَعْـدي عَلَـى الزَّمَـنِ
إنَّ الرَّجَـاءَ الـذي قَدْ كنتُ آمَلُـه
وَضَعْتُـهُ وَرَجَـاءَ النَّـاسِ في كَفَـنِ
في اللهِ مِنْهُ وجَـدْوَى كَفِّـهِ خَلَـفٌ
لَيْسَ السُّدَى والنَّدَى في راحةِ الحَسَنِ

ومنه قوله يهجو رجلاً آخر هجاء هو أقرب إلى النقد الاجتماعي، وتعرية المنافقين الذين يتظاهرون بالتديُّن والتقوى وإقامة الفروض كالحج، والمحافظة على السُّنن كإطالة اللّحى. وهو هجاءٌ رأينا الصعاليك الفقراء يعمدون إليه للكشف عمن كانوا يزيفون أنفسهم، ويخدعون الناس بنفاقهم عن حقائق سلوكهم، وما كانوا يقترفون من الكبائر، ويرتكبون من الجرائم. وهو يراوح في هجائه له فضلاً عن ذلك بين الاستخفاف به والتحقير له، وبين السخرية المضحكة منه، إذ يقول[2] :

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ٢٣.

(٢) الكامل للمبرد ٣ : ١٢٨.

مَا سَرَّنِـــي أَنَّنِـــي في طُولِ دَاودِ
وأَنَّنِـــي عَلَـمٌ في البَـأْسِ والجُـودِ
مَاشَيْتُ داودَ فاسْتُضْحِـكْتُ من عَجَبٍ
كأَنَّنِـــي والِـــدٌ يَمْشِي بِمَوْلُـــودِ
مَا طُولُ دَاودَ إِلَّا طولُ لِحْيَتِـــــه
يَظَـلُّ داودُ فيهـا غَيْـرَ مَوْجُـودِ
تُكِنُّـهُ خُصْلَـةٌ منهـا إذا نَفَـحَتْ
ريحُ الشتاء وَجَفَّ الماءُ في العُـودِ
كالأَنْبِجانِـيِّ مَصْقُـولاً عَوارِضُهـا
سَوداءُ في لِيـنِ خَدِّ الغَـادة الـرُّودِ[1]
أَجْزَى وأَغْنَى مِنَ الخَزِّ الصَّفِيقِ ومِنْ
بيضِ القَطائِـفِ يَوْمَ القُـرِّ والسُّودِ[2]
إِنْ هَبَّت الرِّيـحُ أَدَّتْـهُ إلـى عَدَنٍ
إنْ كانَ مَا لَفَّ منهـا غَيْـرَ مَعْقُـودِ

ومن شعره ما رثى به ابنة أخته أميمة رثاء صور فيه أسفه عليها، وألمه لفقدها، كما أظهر فيه أيضاً ما غمرَ نفسه من السعادة لموتها، لأنه كفاه السهر عليها، والحراسة لها، إذ يقول[3]:

أُمْسَتْ أُمَيْمَةُ مَعْمُوراً بِهَا الرَّجَمُ   لَقًى صَعيدٍ عَليها التُّرْبُ مُرْتَكِمُ[4]
يَا شِقَّةَ النَّفْسِ إنَّ النفسَ والِهَةٌ   حَرَّى عليكِ ودَمْعُ العَيْنِ مُنْسَجِمُ

---

(١) الانبجاني : كساء من الصوف منسوب إلى منبج على غير قياس. العوارض : الجوانب. الغادة الرود : الفتاة الحسنة الشابة.

(٢) القطائف : جمع قطيفة، وهي كساء له خمل ووبر. القر : البرد. السود : السحب الداكنة.

(٣) الكامل للمبرد ٤ : ٢٠.

(٤) الرجم: القبر. اللقى: المطروح.

قَدْ كنتُ أُخشَى عليها أَنْ تُقَدِّمَني   إلى الحِمامِ فَيَبْدي وَجْهَهَا العَدَمُ
فالآنَ نِمْتُ فَلَا هَمٌّ يُؤَرِّقنـــــي   يَهْدَا الغيورُ إذا ما أُودَتِ الحُرَمُ
لِلْمَوْتِ عندي أيادٍ لستُ أُنكِرُها   أَحْيَا سُروراً وَبي مِمَّا أَتَى أَلَمُ

وقد استغرب المبرد هذا المذهب في الرثاء الذي راوح فيه بين الحزن والفرح، ولم يستطع تعليله تعليلاً صحيحاً، بل عَمَّم القول وأطلقه ملتمساً لنفسه المخرج بمثل قوله[1] : « هذه المرثية ليست مما يقع مع الجَزَع القَراح[2]، والحزن المفرط. ولكنه باب للمراثي يجمع إفراط الجزع، وحسن الاقتصاد، والميل إلى التشكّي، والركون إلى التعزّي، وقول من كان له واعظٌ من نفسه، أو مُذَكِّرٌ من ربه، ومن غلبت عليه الجساوة[3]، وكان طبعه إلى القساوة، فقد اختلط كُلٌّ بِكُلٍّ ».

ولو دقق بعض التدقيق، وتَحَرَّى شيئاً من التحرّي الأسباب التي تكمن وراء هذا الرثاء، والوضعَ الاجتماعي البائس الذي كان يُؤرِّق ابن الطبيب، حتّى جعله يفرح لموت ابنة أخته التي يقول هو إنه « كان حَدِباً عليها كَلِفاً بها »[4]، لعرف أنه عبر فيه عن أنبل العواطف الإنسانية نحوها، فقد حزن لموتها حزناً شديداً، لأنها تنزل منه بمنزلة « شِقّة نفسه »، ولكنه سعد مع ذلك لفقدها، لأنه رأى فيه خلاصاً لها ممّا قد يلحقها من الابتذال إذا توفي قبلها، ولم تجد بعده من يقوم على أمرها ويَعُولها، ويحافظ على شرفها وعرضها.

وفي سيرة ابن الطبيب، وهو أشهر علم من أعلام الشطّار لهذا العهد، خير شاهد على أن الشطّار لم يكونوا جميعاً من الرِّعاع وسُقّاط الناس وسِفْلَتهم،

---

(١) الكامل ٤ : ٢٠ .
(٢) الجزع القراح: الخالص الموجع.
(٣) الجساوة: الغلظ.
(٤) الكامل ٢ : ٢٠.

بل كان منهم المثقف المرهف الإحساس الى أبعد حدود الإرهاف وأسماها. وفيها أيضاً الشاهد على أنهم لم يصطنعوا التلصُّص والسلب إلّا لإقلالهم وإملاقهم، وأنهم لم يكونوا يبتغون إلّا الفوز بما يقيمهم، ويقيم من تكَفَّلوا بإقامته من أهلهم وذويهم، واستشعروا الواجب نحوهم، وعَزَّ عليهم أن يلقوا المذلة وهم أحياء، حتى آثروا موتهم على أن يعيشوا بعدهم في هوان.

— ٣ —
الطُّفيليُّون

هم فئة ثالثة من الصعاليك الفقراء(١)، عاشوا في عَوَز وسوء حال، وهالتهم المفارقات الصارخة بين حياتهم المعدمة التي لم يكونوا يجدون معها رغفان الخبز التي يشبعون بها جوعهم، ويكسبون أرماقهم، وبين حياة الأغنياء الناعمة المترفة التي كانوا يستمتعون فيها بالملذات من كل نوع، ويشغلون بإقامة الأعراس والولائم، وطلب الملاهي والمسرات.

والطفيلي في اللغة هو الداخل على القوم من غير أن يُدْعى، مأخوذ من الطَّفَل وهو إقبال الليل على النهار بظلمته. يريدون أن أمره يُظْلِمُ على القوم فلا يدرون من دعاه، ولا كيف دخل إليهم(٢). أما في المجتمع العباسي فهو منسوب إلى طفيل بن زَلَّال، رجل من أهل الكوفة من بني غطفان، كان يأتي الولائم من غير أن يُدْعَى إليها، وكان يقال له : طفيل الأعراس والعرائس، فنسب الطفيلي إليه، وسُمِّي به(٣).

---

(١) أنظر في الطفيليين كتاب التطفيل للبغدادي، وكتاب الأذكياء ص : ١٧٧، ومحاضرات الأدباء ١ : ٣٠٥، وشرح المقامات ١ : ١٨٨، والعقد الفريد ٦ : ٢٠٥.

(٢) كتاب التطفيل ص : ٥. والأذكياء ص : ١٧٧، واللسان : مادة « طفل ».

(٣) كتاب التطفيل ص : ٦، والأذكياء ص: ٧٧.

والتطفيل في أصله ومغزاه دعوة قوية إلى المساواة بين الناس في أسباب المعاش، ومشاركة الفقراء الأغنياء في طيبات الحياة، خلافاً لما قد يفهم من أنه نزول عن الكرامة، واستساغة للمهانة، وأن صاحبه جَشِع ساقط لا أدب عنده، ولا شرف له.

ويعلن الطفيليون في وضوح أن العدم، وشح الأثرياء، وقعودهم عن مساعدة الضعفاء، ومواساة الجائعين هي الأسباب التي جعلتهم يصطنعون التطفيل وسيلة إلى حياتهم، ويخرجون عن طورهم، ولا يُبالون بِذَوْقٍ ولا بِعُرف ولا بشهامة في سبيل حصولهم على أقواتهم، إذ يقول أحدهم معبراً عن ذلك تعبيراً دقيقاً[1] :

ولمّا رأيتُ النّاس ضنُّوا بِمالِهِمْ فلم يَكُ فيهم من يَهَشُّ إلى الفَضْلِ
ولم أرَ فيهم داعياً لابنِ فاقَة يَحِنُّ إلى شُرْبٍ ويَصْبُو إلى أكْلِ
ركِبْتُ طُفَيْلِيّاً وطَوَّفْتُ فيهِـمُ ولم أكتَرِثْ لِلْحِلم والعِلْمِ والأصْلِ

وتدل دلائل كثيرة على أن التطفيل كان حركة قوية في المجتمع العبّاسي، أولها : عناية القدماء به، وإفرادهم الكتب والفصول الطويلة له. وثانيها : كثرة أخبارهم وأشعارهم التي اشتملت عليها تلك الكتب والفصول. وثالثها : وضوح أهدافهم وغاياتهم. ورابعها : كثرة زعمائهم الذين كانوا يقومون منهم مقام المعلمين والموجهين.

ومن أهم أعلامهم لهذا العصر طفيل بن زَلال الذي نسب إليه الطفيليون. ومن قوله وشعره يوصي ابنه عبد الحميد لكي يجيد صناعته، ويتمرس بحرفته[2] : « إذا دخلتَ عرْساً فلا تَلْتَفِتْ تَلَفُّتَ المريب، وتخيَّر المجالس، فإن كان العرس كثيراً لزحام فأمُرْ، وَانْهَ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة، ولا

(١) كتاب التطفيل ص : ٨٠.
(٢) كتاب التطفيل ص : ٧٤، وانظر العقد الفريد ٦ : ٢٠٤.

في عيون أهل الرجل، ليظنَّ هؤلاء أنك من هؤلاء، ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء، فإن كان البواب غليظاً وقّاحاً فابدأ به، ومُرْهُ وَانْهَهُ من غير أن تعنِّفه. وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال، وأنشد :

لا تَجْزَعَـــنَّ مِنَ القَـــريبِ ... ولا مِنَ الرَّجُـــلِ البَعِيـــد
وَادْخُـــلْ كأنَّك طابـــخٌ ... بِيَـــدَيْكَ مِغْرَفَـــةُ الثَّريـــد
مُتَدَلِّيـــاً فَوْقَ الطَّعـــا ... مِ تَدَلِّـــيَ البـــازي الصَّيُـــود
لتَلُـــفَّ مَا فَوْقَ المـــوا ... ئِدِ كُلَّهـــا لَفَّ الفُهُـــود[1]
وَاطْـــرَحْ حَيـــاءَكَ إنَّمـــا ... وَجْـــهُ المُطَفِّـــلِ مِنْ حَدِيد

ومن أعلامهم المشهورين عثمان بن درّاج. وهو من موالي كندة، كان في زمن المأمون، وله شعر مليح، وأدب صالح[2]. وتتضح عنده أصولُ الصناعة وحيلها ووسائلها وأهدافها أكثر من اتضاحها عند طفيل بن زلال، ومما يفترق فيه عنه أنه كان يرى أن رفاقه من الطفيليين فقراء إلى الطعام محتاجون إليه أكثر ممن صُنع لهم، ودعوا لأكله والاستمتاع به. وله يُعَلِّمهم ويدربهم : « لا يهولنكم إغلاق الباب، ولا الحجاب، وسوء الجواب، وعبوس البواب، ولا تحذيرُ الغراب، ولا منابذة الألقاب، فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال، ومُغنٍ لكم عن ذُلّ السؤال. واحتملوا اللكزة الموهِنة، واللّطمة المزمنة في جنب الظفر بالبُغية، والدَّرَك للأمنية. والزموا المطارحة للمعاشرين، والخفة للواردين والصادرين، والتملُّق للمُلهين والمطربين، والبشاشة للخادمين والموكلين. فإذا وصلتم إلى مُرادكم فكلوا محتكرين، وادَّخِرُوا لِغَدِكُمْ مُجْتَهدين، فإنكم أحق بالطعام ممن دُعِي إليه، وأولى به ممن وُضِعَ له. فكونوا لوقته حافظين، وفي طلبه مُستَمِرّين، واذكروا قول أبي نواس :

---

(١) الفهود : جمع فهد، وهو سبع يصاد به.
(٢) الأغاني ١٥ : ٣٥.

لِتَخْمُسَ مَالَ اللهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ   وَذي بِطْنَةٍ للطَّيِّبــاتِ أَكُــولِ[1]

وليس المهم في وصيته لأمثاله من الطفيليين تمرينه لهم وتثقيفه إياهم، وطلبه إليهم أن يحتملوا الأذى ولا يبالوا بما قد يصيبهم من التجريح والطعن، وإنما المهم فيها ما بثّه فيهم أن لهم حقاً في الطعام الذي يعد للأغنياء، ويُمْنَعُ عن الفقراء، وأنهم إنما يأخذون بذلك الصدقة المفروضة لهم في أموال الأثرياء، التي نص القرآن على أن يخرجوها لهم، ويفرقوها عليهم.

ومن شعره قوله يصور المتعة التي يحسها حين يأكل من طعام الأغنياء ما يُشْبِعُ جوعه، ويَسُدُّ رَمَقَهُ[2] :

لَذَّةَ التطفيــــلِ دُومـــــي   وأقيمـــــي لا تَريمــــــي
أنت تَشْفِيــــنَ غليلــــي   وتُسَلِّينــــي همومــــــي

والذي لا شك فيه أن الطفيليين يَلْتَقُون مع الشطّار والعيّارين في أنهم كانوا من الفقراء الجائعين، ولكنهم يفترقون عنهم في أنهم لم يميلوا إلى التلصُّص على الأغنياء ونهبهم عنوة واقتداراً، بل مالوا إلى تحصيل حقهم منهم بالحيلة اللطيفة، دون مشقة أو عناء، وتقبلوا الإهانة والتحقير بعض التقبل، ولم يروا فيهما عاراً ولا مَسَبَّة ما داموا قد انتصفوا لأنفسهم، وفازوا بحقهم.

---

(١) زهر الآداب ص : ٩٠٨.

(٢) الأغاني ١٥ : ٣٦.

خاتمة

كان للاختلال الاقتصادي، والتناقض الاجتماعي، وكثرة الفتن والاضطرابات أكبر الأثر في نشأة الصعاليك في العصر العبّاسي الأول. فقد عمل الخلفاء ووزراؤهم وعمالهم على استصفاء الأموال من الشعب في أكثر الأمصار، وبَذَّرُوا أكثرها على ملذاتهم ومسراتهم وحواشيهم، وعلى المحافظة على أنفسهم، وضنوا بأقلها على الشعب فعاش أبناؤه في ضيق وعسر شديدين ممّا أدّى إلى قسمة المجتمع بين طبقتين مختلفتين متميّزتين : طبقة الأثرياء المترفين، وطبقة الفقراء المعدمين. وكان للثورات التي أشعلها الخوارج والشيعة وغيرهم من الثائرين على الخلافة العبّاسية، وللصراع الذي دار بين أبناء البيت العباسي على الحكم أثر واضح في زيادة شقاء الطبقات الدنيا وبؤسها، وفي تمادي الحكام الظالمين في بغيهم وطغيانهم، مما أعد لانتشار الفقر، وكثرة الفقراء، ومما حمل بعض الفقراء على التمرد على أوضاعهم التعيسة، والاجتهاد للفوز ببلغ العيش باحترافهم التصعلك وتنويعهم في وسائلهم التي احتالوا بها لإقامة أنفسهم.

واختلفت حركة الصعلكة في المجتمع العباسي عنها في المجتمعين الجاهلي والأموي، فقد ظهر الأخيرون في مجتمع بدوي، وبيئة صحراوية، ونشأ الأولون في مجتمع مستقر، وبيئة متحضرة، مما جعلهم يهملون الغزو والإغارة، والترصد وشهر السلاح على نحو ما فعل الصعاليك الجاهليون والأمويون، ويميلون إلى

وسائل تتفق مع طبيعة الحياة في مجتمعهم، فإذا بعضهم تارة يرفعون رقاع الشكوى إلى كبار المسؤولين، ويسألونهم البر والمواساة، وتارة يهجون ويشنعون على مهجوّيهم ويلطخونهم بالعار تلطيخاً، وتارة يستغيثون ويستجدون، وإذا بعضهم يحترفون التلصُّص احترافاً معتمدين على الحيل اللطيفة التي تمكنوا بها من سرقة الدور والأسواق والمسافرين في خفة، دون أن يشعر بهم أحد، أو يتهمهم بأنهم هم الذين سرقوه، وإذا غيرهم يؤثرون التطفيل ويجدون فيه الوسيلة الى كسب أقواتهم، ومقاسمة الأغنياء في ملذات الحياة مع احتمال الأذى والصبر على الإهانة. واستمر بعضهم ممن تسلطت الروح الأعرابية، والحمية الجاهلية على نفوسهم يغزون ويغيرون، غير أنهم كانوا قلة قليلة بالقياس الى طوائف الصعاليك السابقة التي بَدَّلَت وسائلها، ولاءمت بينها وبين طبيعة الحياة الجديدة في المجتمع العباسي.

وألّفَ الصعاليك الفقراء طائفةً متميزةً من الصعاليك العبّاسيين، وكانت حياتهم بائسة قاسية، إذ كانوا لا يظفرون من رغفان الخبز بما يقيمون به أرماقهم وأرماق أولادهم وأهلهم، ومن المتاع بما يفرشونه في بيوتهم ويسترون به أبدانهم، فإذا هم عراة جائعون مُضيَّعون، واذا هم لا يفوزون بشيء أينما توجهوا، وكيفما طلبوا الرزق. ولكنهم مع ذلك لم يجدوا بُدًّا من السعي والتوسل والاحتيال للفوز ببلغ العيش، فمدحوا، ولم يجلب لهم المديح شيئاً يذكر من المال، لأن مديحهم استحال ضرباً من الشكوى التي آذت ممدوحيهم، وجعلتهم يزورُّون عنهم ولا يواسونهم، فصبوا عليهم لاذع هجائهم وفاحشه، وأرغموهم إرغاماً على أن ينزلوا لهم عن بعض الدراهم، واضطر نفر منهم إلى الاستجداء والتَّسَوُّل والكدية اضطراراً. وكان أبو الشمقمق أشقى صعلوك فقير، إذ تعذر عليه الرزق في كل مكان قصده، وضن عليه أكثر من مدحهم واستعطفهم بالدراهم المعدودة، فعاش حياته مُعْدَماً مَحروماً يغني نفسه همومها، ويغني الطبقات الفقيرة آلامها، ويصور محنتها،

ويدعو إلى المساواة بين الطبقات في أسباب المعاش الأساسية، ووسائل اللهو الثانوية.

ولم يرض قسم آخر من الفقراء بما كتب لهم من الشقاء والبلاء، بل تمردوا على أوضاعهم السيئة، وكوّنوا ما يشبه العصابات المتخصّصة، التي كانت واعية بمفاسد مجتمعها، مثقفة ثقافة واسعة بأخبار الصعاليك الماضين ومثاليتهم الرفيعة وغاياتهم النبيلة، مدربة تدريباً دقيقاً على أعمال التلصُّص والنهب. ولم يكن من همهم في شيء أن يؤذوا الناس جميعاً، ولا أن يلحقوا بهم أي مكروه، وإنما وَجُهُوا جهودهم لاستخلاص حقوقهم من الأغنياء البخلاء، والتجار المخادعين الكذابين الذين أثروا لكثرة ما غشوا وأنكروا على الناس ودائعهم، ولطول ما امتنعوا عن أداء الزكاة. أما الرجال الكرماء الذين كانوا يجودون ويتصدقون على الفقراء فلم يكونوا يتعرضون لهم بسوء، بل كانوا يحترمونهم ويقدرونهم، وكذلك صنعوا مع الضعفاء الفقراء من أمثالهم.

وَمَثّل العَيَّارون طائفةً من الفقراء المعوزين الذين عَزّ عليهم القوت والملبس، فَعاشوا عراةً جائعين في مجتمع القلة المترفة اللاهية، واضطروا إلى السطو والسرقة لإقامة أنفسهم والمحافظة على حياتهم. وكانوا يعدون بعشرات الآلاف في هذا العصر، غير أن حركتهم ومبادئهم وأهدافهم إنما اتضحت في العصر العباسي الثاني. وكان الشطّار كالعيّارين في العدم والبؤس، واحترفوا مثلهم الإغارة على الأسواقِ والقرى، ولم يقصدوا من إغارتهم ونهبهم إلا الفوز بما يكسبون به آوادهم. وكان ابن الطبيب أشهرهم وأكبر من نطقِ بلسانهم، ووصف سوء أحوالهم وآمالهم. وشرك الطفيليون العيّارين والشطّار في الفقر والضياع، ولكنهم لم يحترفوا الغزو، بل فَضّلوا التطفيل لمشاركة الأغنياء في مادبهم وأفراحهم دون أن يدعوا إليها، واحتالوا لذلك بحيل مختلفة، وروّضوا أنفسهم على الصبر على الطرد والإهانة في سبيل الحصول على القوت. وكان لهم رؤساء أسهموا في توعيتهم وتدريبهم وشرح أهدافهم أهمهم طُفَيْل بن زلّال، وعثمان بن دَرّاج.

مصادر البحث ومراجعه

(١) **ابن الأثير** : أبو الحسن، عز الدين علي بن محمد (ـــ ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ. طبع بيروت ١٩٦٥.

(٢) **أحمد أمين** :

١ ـــ الصعلكة والفتوة في الإسلام. طبع دار المعارف بمصر.

٢ ـــ ضحى الإسلام طبع مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة ١٩٦٤.

(٣) **الأصفهاني** : أبو الفرج، علي بن الحسين بن محمد الأموي (ـــ ٣٥٦ هـ). الأغاني طبعة دار الكتب المصرية، وطبعة الساسي.

(٤) **البغدادي** : أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت (ـــ ٤٦٣ هـ)

١ ـــ تاريخ بغداد. طبع مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٣١.

٢ ـــ كتاب التطفيل. نشر المكتبة الحيدرية بالنجف ١٩٦٦.

(٥) **البغدادي** : عبد القادر بن عمر (ـــ ١٠٩٣ هـ) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. طبع المطبعة الأميرية ببولاق ١٢٩٩.

(٦) **ابن بكار** : الزبير (ـــ ٢٥٦ هـ) الأخبار الموفقيات. تحقيق الدكتور سامي مكي العاني. طبع مطبعة العاني ببغداد ١٩٧٢.

(٧) **البلاذري** : أبو جعفر، أحمد بن يحيى بن جابر (ـــ ٢٧٩ هـ). أنساب الأشراف. طبع مكتبة المثنى ببغداد.

(٨) **بندلي الجوزي** : من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام. طبع مطبعة بيت المقدس بالقدس.

(٩) **البيهقي** : ابراهيم بن محمد. المحاسن والمساوىء. طبع بيروت ١٩٦٠.

(١٠) **ابن تغري بردى** : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ــ ٨٧٤ هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. طبع دار الكتب المصرية.

(١١) **التنوخي** : أبو علي، المحسن بن علي (ــ ٣٨٤ هـ) الفرج بعد الشدة. طبع مصر ١٩٣٨.

(١٢) **الثعالبي** : أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ــ ٤٢٩ هـ) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. طبع مطبعة الظاهرية بالقاهرة ١٩٠٨.

(١٣) **الجاحظ** : أبو عثمان، عمر بن بحر محبوب (ــ ٢٥٥ هـ)

١ ــ البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. طبع مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٠.

٢ ــ الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٣٨.

٣ ــ القول في البغال. تحقيق شارل بلا. طبع مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٥.

٤ ــ المحاسن والأضداد. طبع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٣٢.

(١٤) **جرجي زيدان** : تاريخ التمدن الاسلامي. مراجعة الدكتور حسين مؤنس. طبع دار الهلال.

(١٥) **ابن الجراح** : أبو عبدالله محمد بن داود (ــ ٢٩٦ هـ) الورقة. تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج. طبع دار المعارف بمصر ــ الطبعة الثانية.

(١٦) **الجهشياري** : أبو عبدالله، محمد بن عبدوس. الوزراء والكتاب. تحقيق مصطفى السقا وجماعته طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٨.
(١٧) **ابن الجوزي** : أبو الفرج، عبد الرحمن (ــ ٥٩٧ هـ). الأذكياء. طبع المكتب التجاري ببيروت.
(١٨) **جوستاف جرنباوم** : شعراء عباسيون. ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم. طبع دار الحياة ببيروت ١٩٥٩.
(١٩) **ابن حبيب** : أبو جعفر، محمد بن حبيب بن أمية (ــ ٢٤٥ هـ). المحبر. طبع الهند ١٩٤٢.
(٢٠) **ابن أبي الحديد** : عز الدين بن أبي حامد بن هبة الله المدائني (ــ ٦٥٦ هـ) شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثانية ١٩٦٥.
(٢١) **الحصري القيرواني** : أبو اسحاق، ابراهيم بن علي (ــ ٤٥٣ هـ).
١ ــ زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق علي البجاوي. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٣٥.
٢ ــ ذيل زهر الآداب. طبع المطبعة الرحمانية بمصر.
(٢٢) **أبو حنيفة الدينوري** : أحمد بن داود (ــ ٢٨٢ هـ). الأخبار الطوال. تحقيق عبد المنعم عامر. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٠.
(٢٣) **أبو حيان التوحيدي** : الامتاع والمؤانسة. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
(٢٤) **ابن خلكان** : أبو العباس، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ــ ٦٨١ هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبع مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨.
(٢٥) **الراغب الأصفهاني** : أبو القاسم، حسين بن محمد (ــ ٥٠٢ هـ). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. طبع مطبعة ابراهيم المويلحي ١٢٨٧.

(٢٦) **أبو زيد القرشي** : محمد بن أبي الخطاب. جمهرة أشعار العرب. تحقيق علي البجاوي. طبع دار نهضة مصر.

(٢٧) **السيوطي** : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ـــ ٩١١ هـ). شرح شواهد المغني. طبع لجنة التراث العربي بدمشق ١٩٦٦.

(٢٨) **ابن شاكر الكتبي** : محمد بن شاكر بن أحمد (ـــ ٧٦٤ هـ). فوات الوفيات. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. طبع مكتبة النهضة المصرية.

(٢٩) **الشريشي** : أبو العباس، أحمد بن عبد المؤمن (ـــ ٦٢٠ هـ). شرح مقامات الحريري. طبع المطبعة العثمانية بالقاهرة ١٣١٤.

(٣٠) **شوقي ضيف** :

١ ـــ العصر الجاهلي. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

٢ ـــ العصر العباسي الأول. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٥.

٣ ـــ العصر العباسي الثاني. طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٣.

(٣١) **الطبري** : أبو جعفر، محمد بن جرير (ـــ ٣١٠ هـ). تاريخ الرسل والملوك. طبعة ليدن ١٨٧٩.

(٣٢) **ابن الطقطقي** : محمد بن علي بن طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية. طبع مطبعة المعارف بمصر ١٩٢٣.

(٣٣) **ابن عبدربه** : أحمد بن محمد (ـــ ٣٢٨ هـ). العقد الفريد. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.

(٣٤) **عبد العزيز الدوري** :

١ ـــ دراسات في العصور العباسية المتأخرة. طبع مطبعة السريان ببغداد ١٩٤٥.

٢ ـــ العصر العباسي الأول (دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي).

(٣٥) **أبو عبيد البكري** : عبدالله بن عبد العزيز (ـــ ٤٨٧ هـ). سمط

اللآلي. تحقيق عبد العزيز الميمني. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر. بالقاهرة ١٩٣٦.

(٣٦) **أبو العتاهية** : اسماعيل بن القاسم (ــ ٢١٠ هـ). ديوانه. طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٤.

(٣٧) **عمر الدسوقي** : الفتوة عند العرب. طبع مكتبة نهضة مصر ــ الطبعة الثانية.

(٣٨) **القالي** : أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون (ــ ٣٥٦ هـ). الأمالي. طبع مطبعة السعادة بمصر ــ الطبعة الثالثة ١٩٥٣.

(٣٩) **القتال الكلابي** : ديوانه. حققه الدكتور احسان عباس. طبع دار الثقافة ببيرون ١٩٦١.

(٤٠) **ابن قتيبة** : أبو محمد، عبدالله بن مسلم (ــ ٢٧٦ هـ).

١ ــ الشعر والشعراء. تحقيق أحمد شاكر. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

٢ ــ عيون الأخبار. طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٥.

(٤١) **الكندي** : أبو عمر، محمد بن يوسف الكندي المصري. الولاة والقضاة. تصحيح رفن كست. طبع مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ١٩٠٨.

(٤٢) **المبرد** : أبو العباس محمد بن يزيد (ــ ٢٨٥ هـ). الكامل. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته. طبع مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦.

(٤٣) **المرزباني** : أبو عبيدالله، محمد بن عمران (ــ ٣٨٤ هـ). معجم الشعراء. تحقيق عبد الستار فراج. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٠.

(٤٤) **المرزوقي** : أبو علي، أحمد بن محمد الحسن (ــ ٤٢١ هـ). شرح ديوان الحماسة. تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥١.

(٤٥) **المسعودي** : أبو الحسن، علي بن الحسين (ـــ ٣٤٦ هـ). مروج الذهب ومعادن الجوهر. طبع دار الأندلس ببيروت.

(٤٦) **ابن المعتز** : عبدالله (ـــ ٩٢٦ هـ). طبقات الشعراء المحدثين. تحقيق عبد الستار فراج. طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٦.

(٤٧) **ابن المعمار** : أبو عبدالله، محمد بن أبي المكارم. كتاب الفتوة. تحقيق الدكتور مصطفى جواد وجماعته. نشر مكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٨.

(٤٨) **المقريزي** : أحمد بن علي بن عبد القادر. الخطط المقريزية. طبع مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤.

(٤٩) **ابن منظور** : جمال الدين محمد بن مكرم (ـــ ٧١١ هـ). لسان العرب. طبع المطبعة الاميرية ببولاق.

(٥٠) **ابن النديم** : أبو الفرج محمد بن اسحاق بن يعقوب. الفهرست. طبع مكتبة خياط ببيروت.

(٥١) **أبو نواس** : الحسن بن هانيء (ـــ ١٩٩ هـ). ديوانه. تحقيق أحمد الغزالي. طبع دار الكتاب العربي ببيروت.

(٥٢) **النويري** : أحمد بن محمد بن عبد الوهاب (ـــ ٧٢٣ هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب. طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٩.

(٥٣) **ياقوت الحموي** : أبو عبدالله، ياقوت بن عبدالله (ـــ ٦٢٦ هـ).
١ ـــ معجم الأدباء. طبع دار المأمون.
٢ ـــ معجم البلدان. طبع طهران ١٩٦٥.

(٥٤) **اليعقوبي** : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ـــ ٢٩٢ هـ). تاريخ اليعقوبي. نشر المكتبة الحيدرية بالنجف ١٩٦٤.

(٥٥) **ي . هل** : الحضارة العربية. ترجمة الدكتور ابراهيم العدوي. طبع مكتبة الأنجلو المصرية.

(٥٦) **يوسف خليف** : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. طبع دار المعارف بمصر.

فهرس المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول : أسباب ظهور الصعاليك
في العصر العباسي الأول ٩

(١) الاختلال الاقتصادي ١١
(٢) التناقض الاجتماعي ٢٦
(٣) كثرة الفتن والاضطرابات ٣٩

الفصل الثاني : الصعاليك في المجتمع العباسي ٥٣

(١) الصعاليك في المجتمعين الجاهلي والأموي ٥٥
(٢) تطور الصعاليك مع تطور المجتمع العباسي ٦٤
(٣) رواسب الصعلكة القديمة ٦٩

الفصل الثالث : الصعاليك الفقراء الهَجّاؤون ٨٣

(١) سوء أحوالهم ٨٥
(٢) وسائلهم إلى كسب أرزاقهم ٩٦
(٣) أبو الشمقمق أشقى الصعاليك الفقراء ١٠٨

الفصل الرابع : الصعاليك الفقراء اللصوص ٢١

(١) حركة قوية منتظمة ٢٣

(٢) حيلهم وأعمالهم ٣١

(٣) مبادئهم وأهدافهم.. ٣٦

الفصل الخامس : طوائف أخرى من الصعاليك ٤٣

(١) العَيّارون ٤٥

(٢) الشُطّار ٥٢

(٣) الطفيليون ٦٠

خاتمة ٦٥

مصادر البحث ومراجعه ٦٩

الفهرس ٧٥